منهجية سورة البقرة
في بناء الأمة

الطبعة الأولى

1446 هـ / 2025 م

اسـم الكتـــاب: منهجية سورة البقرة في بناء الأمة
الـمـــــؤلـــــف: عبدالباقي الديب
موضوع الكتاب: قصة طالوت وجالوت نموذجاً
عـدد الصفحات: 146 صفحة
عـدد الـمـــلازم: 19,125 ملزمة
مقاس الكتـاب: 17 x 24
عـدد الطبعـات: الطبعة الأولى
رقـــم الإيـــداع: 3780 / 2025
الترقيـم الـدولي: 978-977-8796-36-0

القاهرة - جمهورية مصر العربية
01012355714
01152806533
elbasheer.marketing@gmail.com
elbasheernashr@gmail.com

دار البشير

جميع حقوق الطبع والنسخ والترجمة محفوظة لدار البشير للثقافة والعلوم، حسب قوانين الملكية الفكرية، ولا يجوز نسخ أو طبع أو اجتزاء أو إعادة نشر أية معلومات أو صور من هذا الكتاب إلا بإذن خطي من الناشر

محفوظة جميع الحقوق

منهجية سورة البقرة

في بناء الأمة

قصة طالوت وجالوت نموذجاً

تأليف عبدالباقي الديب

تقديم

الأستاذ الدكتور خالد فهمي

الدكتور محمد محمود أبو دوابه

إهداء

لاتـزال صورتـه التـي تناقلتهـا الفضائيات ماثلـة أمامي، أصابته طائرة مقاتلة، فخر سـاجداً رافعاً سـبابته إلى السـماء، لقـد توقع قاتله أن يراه متألماً كسـائر البـشر، فهو لحم ودم!!، ثـم علمـتُ أن كان حاملاً للقـرآن، وكان يـؤم الناس بصوته الحسـن، فلما حان الوقت شـهد بدمه على صدق إيمانه، فإليه، وإلى أمثاله أهدي هذه الأبيات وهذا الكتاب.

الشهيد الساجد

قـل لي بربك أي خـاتمـةٍ تريد؟! أتريد بعثاً في خشوع الساجدين
أم خـيرتـك سرائـــر أخفيتها فأردت بعثاً في صفوف الشاهدين؟!
أم أن آيـات الكتاب استأثرت بك دونهم تاجاً لرأس الحافظين؟!

اختر لنفسك سيدي فالسر مفتاح المزيد

ولـقـد رأيـتـك في كـتـابي مـرة قُطعت يـداك وأنـت تحتضن اللواء
ونزلت عن فـرس الجهاد عقرتها مترجلاً ما خفت أرضـاً أو سماء
وغرستَ صفرَ البين جوفَ صفوفهم عجباً لصفرك يا فتى سبق القضاء

اكتب لنفسك ما تشا فالحرف من قطر الوريد

ولـقـد قصصتك في حديثي مرة مـن دون بـدر والـرسـول يبشرك
إن الجـنـان قـريـبـة للمقبلين بوجههم نحو الـعـدو وإن هلك
فـارتـاد شـانـئـك الـفـضـاء لعله من خلف أستار الفضاء يقاتلك

فهزمت كل حديدهم حين السجود

عجباً لشأنك يا فتى ولدتك أُمْ مُـك مـرة وولـدت ثـانـيـة هنا
وأراد قـتـلـك غـيـلـة فقتلتهم حين السجود وحين عزمك ما انثنى
فـأضـفـت في أم المـعـاجـم لفظة صفرُ السجودِ وقودُ سر من اجتنى

صفر بصفر والمزيد لمن يزيد

عبد الباقي الديب

٦ من نوفمبر ٢٠٢٤م

مقدمة الأستاذ الدكتور خالد فهمي

النور في مواجهة الظلمة!

مدخل: قاعدة تترسخ!

منذ نشرت كتابي (كأن القرآن يتنزل من جديد) وأنا من أشد المدافعين عن تطبيقات قاعدة :"القرآن يفسره الزمان"؛ ومن هذا المنظور أدعو القارئ الكريم أن يحتفي بعمل الأستاذ عبد الباقي الديب: (منهجية سورة البقرة في بناء الأمة)، واستلهامه الموفق لقصة طالوت وجالوت؛ لخدمة الأمة في واحدة من أقسى الأزمنة أزمةً وتراجعًا حضاريًا شاملاً.

إنني مؤمن وأدعو القارئ الكريم أن يؤمن معي أن الكتاب العزيز هداية، وكتاب يهدر بالنور، وكتاب يحيل الظلمات إلى أنوار هادية، وكتاب بناء، وعمران، وكتاب حضارة!

ووظيفة الأمة أن تتهدى بهديه، وأن تشغل قوانينه في النفس والمجتمع والحياة على تفعيل قاعدتين حاكمتين لا تتخلفان، ولا تبخلان بعطاء في أي وقت من أوقات الحاجة وهما:

أولا- قاعدة اللسان؛ ذلك أن الكتاب، إنما نزل بلسان عربي مبين، كما يعلن الكتاب العزيز نفسه في غير ما آية، وبطرق متنوعة، وفي سياقات متنوعة، ليقرر محورية هذه القاعدة في التأتي لاستلهامه، واستثماره وتفعيله في حياة الناس، يقول تعالى :﴿وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ﴾ (سورة النحل ١٦/ ١٠٣)، ويقول تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾(سورة يوسف ١٢/ ٢)، ويقول تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ (سورة الزخرف ٤٣/ ٣)

ثانيا- قاعدة الزمان؛ ذلك أن القرآن الكريم هو الكتاب الخاتم الذي ليس بعده وحي، ومن ثم فإن كل الأجيال واجدة مطلوبها فيه، مع تغير الأحوال، وتجدد المشكلات والمطالب والاحتياجات والأزمات.

١/الكتاب : أهميته وانتماءاته المعرفية

١/١- الأهمية

تتمثل أهمية عمل الأستاذ عبد الباقي الديب أنه ترجمة واعية حقيقية لفهم طبيعة الكتاب العزيز في الحياة، ووظيفته في الأمة، من حيث هو كتاب عمران، ونجاة وتصحيح للمسارات عند اشتجار الطرق، والدخول إلى عالم ثمين!

ثم إن هذا الكتاب يمنحنا مثالا غير أخير على تطوير "مناهج التفسير" وأنواعه، ويعزز نشاطات التفسير السياسي والاجتماعي والتربوي، ويضيف شيئا مقدرًا في اتجاه دعم التفسير الحضاري للكتاب العزيز.

١/٢- الانتماءات المعرفية.

هذا الكتاب متنوع في انتماءاته المعرفية من دون مجاملة، إذ المجال ليس مجال مجاملة أبدا، ومما يمكن بيانه في هذا السياق ما يأتي:

أولا- حقل دراسات التفسير القرآني الذي يتجاوز المنهجية التقليدية التي تنهض على عماد التحليل اللغوي ابتداء إلى منهجيات تستثمر أحداث الأزمات الراهنة للتهدي إلى تجاوزها وفق القوانين الحاكمة للنظر من جانب، ووفق مقاصد هذا الكتاب العظيم التي تتلخص فيما أعلنه عن نفسه عندما قرر أنه ﴿هُدِىَ﴾ (سورة البقرة ٢/ ٢)وإنه ﴿شِفَآءٌ﴾

(سورة الإسراء ١٧/ ٨٢). ومقصد الهدى يفعل عند الضلال، ومقصد الشفاء يفعل عند المرض، والأمة اليوم واقعة في الحاجة إلى التهدي للمقصدين الأعليين الجليلين.

ثانيا- حقل دراسات الاجتماع الديني والسياسي من منظور الرؤية القرآنية ؛ ذلك أنه يسعى لبيان صفات "النخبة" المطلوبة للتغيير ، وفحص تكوين النخب وإعادة الضبط المجتمعي على هدى الكتاب العزيز هى بعض مشغلة ذلك الحقل البالغ الأهمية.

إن الأنساق والنماذج المعرفية في ظل اصطخابها وتناقضات ما بينها تفرض على الأمة رعاية قوانين الاجتماع وفق المنظور القرآني في ظل ما يمكن تسميته "بصراع الهويات".

ثالثا- حقل دراسات تجديد الدين.

إن الدخول إلى عالم القرآن الكريم بهدف إصلاح الأمة هو نمط من الاستجابة الذاتية لمواجهة الأزمات، ومما أحفظه قديما وأعتقد صحته ما استمعت إليه وقرأته للحكيم المستشار طارق البشري عندما كان يقرر أن"الإصلاح مسألة ذاتية" وأن الإصلاح لا يستورد ومن ثم فإن الكتاب يضرب مثالا حيا لمن يروم الإصلاح أن عليه أن يتوجه لاستخراج أصوله وقواعده وقوانينه ومساراته وضوابطه من الكتاب العزيز بوصفه "النور" النازل من السماء .

٢/ مسارات التشغيل الحضاري للكتاب.

ألح منذ مدة على التوجه إلى فكرة التشغيل الحضاري في ميادين تحقيق نصوص التراث، وفي ميادين قراءة أصول الأمة الفكرية وفي مقدمتها الكتاب والسنة.

والحقيقة أن هذا العمل يفتح أمامنا عدة محاور للإفادة منه، أجمل الإشارة إلى إظهرها فيما يأتي:

أولا- تشغيله في المجال الحضاري.

ثانيا- تشغيله في المجال الاجتماعي وإعادة بناء النخب.

ثالثا- تشغيله في مجال إدارة المراحل الانتقالية.

رابعا- تشغيله في مجال التدريب القيادي.

خامسا- تشغيله في مجال التربية والتنشئة.

إنني أحيي الأستاذ عبد الباقي الديب على توجهه ، وأشكره على تفضله علي بما منحني من هذه الفرصة للتقديم لعلمه.

أ. د. خالد فهمي

كلية الآداب / جامعة المنوفية

مقدمة

د.محمد محمود أبو دوابه

دكتوراه في علم النفس ومحاضر أكاديمي في الجامعات الفلسطينية

عندما أقبل على قراءة كتاب أو بحث أو دراسة أو حتى رواية من باب الاطلاع أو الثقافة أو حتى النقد والتقويم فإنني بالعادة أنفي القيمة المطلقة للموضوع والدقة وأستبعد إعجابي أو تقبلي للعنوان وأضع كل العصي في دواليب شغفي نحوه، وذلك لكي تتكون عندي نظرة تقيميه دقيقة بشغف من نوع آخر يدفعني للتعمق والبحث في تفاصيل أعماق فكرة الكتاب، ولكن في هذا الكتاب الذي يتحدث عن قصة تروى في أعظم الكتب، كتاب الله، فلذلك لم يسعفني هذا التوجه، وتعثرت ركوبتي ولم يكفني زادي العلمي وزوادتي الفكرية، ففي رحلتي بين طيَّاتِ هذا العمل المنتظم، قد أقلعت مع الكاتب عبد الباقي الديب على بساط فكري قد نسجه نساج محترف اتسم بقدرته على صياغة الأفكار وتحليلها، رجل قد عرف الدين وتربع على سدة الكلمة، وامتطى صهوة العبارات بكل سمو وتواضع، فأظهرت فراسته الفقهية والدينية واللغوية قدراته الوصفية والتحليلية في مجالات أخرى كعلم النفس وعلم الاجتماع، وقراءة الواقع وترجمة التاريخ، وطاف بنا لنتلمس زوايا جديدة في القصص الدينية لتشكل لنا خارطة طريق فكرية ترشدنا إلى تشخيص الازمة وتوضيح ميثولوجيا التغير في الشعوب.

عزيـزي القارئ وأنت تقرأ هذا الكتاب عليك أن تسـتحضر كل إحساسـك بحتمية الخير وأن كتاب الله أسلوب الحياة والنجاة من كل هوان، ولا تستعجل في قراءة الكتاب كـي لا تتعثـر في البحث عن المعرفة، فأنت تسـير في معالم تاريخيـة يوضحها الكاتب بكل حرفيـة وتـوزان بين المتنوعـات المطروحة مع الحفاظ على وحدة الموضوع، كفنان يرسـم لوحـة بريشـة متعددة الألـوان امام جمهـور عريق من المشـاهدين وتكتمل اللوحة شـيئًا فشـيئًا، ستشـعر بهـذا التخاطر الفكـري الممتع بينك وبـين الكاتب وكأن مـن يقرأ ومن يكتب هما روح واحدة تتسامى وتتنقل كأثير بين زوايا الكتاب، وكأنها تحيي أذهان القراء وتخرجهـا من ثباتهـا. إن هذا الكتاب يتحدث الى أعماقك قبل سـمعك فلا تتبع الصوت واتبع دواخلك.

هـذا الكتـاب يضع أسسـاً عصريـةً واقعيةً جديـدةً في فهم قصة طالـوت وجالوت، يعتبر هذا الفهم فهماً تشـخيصاً كاشـفًا جديداً، وتحليلاً موضوعياً، مع الإيمان المطلق بأن الأمة لا تحيا وتكون إلا بنبي وكتاب يمثل نبراسـاً مربِّيًا، مطَمئنًا، منارة في أعاصير الفكر المتداخلة.

يختـصر الكتاب التاريخ بين أقواس بسـيطة يطرح بينهـا كل النماذج الوضعية وكيف يتشابه اليوم بالأمس وكيف يمكن تقيس اليوم على الأمس، وكيف لفهم الانثروبولوجيا بواقعيـة وقيـاس دون تحيـز أن تحكِّ الصـدأ الذي عـلا الاذهان على مر السـنين، وكيف يمكـن أن تشـكل النـماذجَ الربَّانية من الأنبياء والمـلأ الصالح والشـعوب الملتزمة إضاءة فكريـة تدرس في الكليات الإنسـانية والعسـكرية وتنقش في سـجلات انتصارات الحق عـلى الباطـل، إنها زراعـة اليقين عبر رحلة استكشـاف لأنـماط الشـخصية البشرية التي يتناولها الكاتب بكل موضوعية كأنه خبير نفسي متعمق، ولو لم أعرفه لحسـبته من باحثي علـم النفـس ومـن رواده، فقد صال وجـال وعدد ووضح لـكل ما قد تقابلـه من أنماط

للشخصية البشرية رابطاً ذلك بكلام الله عن كل شخصية، موضحاً دور كل نمط في حياة الأمـة وصناعتها، يأخذك الكاتـب الى سراديب النفس البشرية كباحث الآثار الذي يبهر الزوار بما قد يشاهدونه لأول مرة، وكيف أن المنهاج القرآني يمحو الجدل العقيم ويساعد الإنسان على أن يتغلب على عدوه الأول وهو نفسه وهواه التي تحاول دوما إخفاء الحقيقة لعـدم تذكير العقل بالحق، يفتح الكاتب السـتار عن قصه الشـعب المـأزوم الباحث عن النجاة بواسـطة قائد مؤيد يختاره الله ونبيهم وخوض القتال خلفه بكل يقين وايمان نحو النصر والحرية، وتستمر الفصول موضحة الاختبارات للشعب والملأ والقائد، وكيف في هذا التاريخ والواقع هناك شـعوب انتفضت وكان لها نبي وكتاب وقائد، وكيف لسـورة عظيمة كسورة البقرة ان توضح أنواع الشعوب وأزماتها وأنواع القادة ومكنوناتهم وكيف لهم أن يلهموا الشـعوب ويسـتتبعوها وأنـه لا يقاتل ولا ينتـصر إلا الناجحون المؤمنون الواقعيون في التشـخيص المقدرون لأنفسـهم ولعدوهم وغير المسـتكبرين على عون الله ومـدده، وكيف أن الزهد المطلق لا ينمي شـخصية قياديه إنما المحكات والابتلاءات هي مـن يميـز الخبيث من الطيب، إنهـا حكمة التصرف مـع الايمان اليقيني بـالله، وكيف أن الثابت الوحيد في هذا الكون هو الله وأن التغيير من أهم سـمات الكون ولا ينقل التغيير ولا يحدثه الا قائد فذ مؤمن يلتف حوله ملأً منظر للفكرة منتشر بين الشعوب الباحثة عن الارتقـاء التي تحتـاج الى التغيير، يصعد الكاتب على منصة التنميـة البشرية ويلقى زهور السعادة على القراء وترتفع أيدي القراء يتلقفون أكبر عدد من الزهرات وسيتعطر المكان بأريـج الادراك والفهـم، لأنـك كقـارئ كلما حضرت لذهنك فكرة عن سـؤال سـتجد الإجابة في السطور القادمة.

هـذا الكتـاب يترجـم شـغف الباحثين عن عـزة النفـس وشرف الخلق وعلـو القدر والمتوسـمين بجوهرة الكرامة والوعي، وهنا على الجمهور أن يجلس بكل صمت وتفكر

ويترك الكاتب ليقدم الفكرة وكأنك تتابع رواية فكرية ترى فيها التاريخ يعكس أضواءه على الواقع وتمثل هذه الأضواء مساراً فكرياً إذا ما سارت عليه المجتمعات نجت وتألقت ونفضت عبوديتها وهوانها.

وكأنني اقرأ بحث دكتوراة كلما سرت بين سطوره أيقنت أن التلميذ تفوق على الأستاذ واسمحوا لي ان أعلن عن شعوري بالعرفان للكاتب حيث سمح لي أن أقدم كتاب بهذا الحجم من الفكر وهذا الاحتراف من الكاتب الذي يدفع القارئ لقراءة الكتاب لأكثر من قراءة واحدة وكأنه يتذوق من شهد الفكر ما لا يشبع.

د. محمد محمود أبو دوابه

مقدمة المؤلف

(١) بين همين

مما تعرف به قدر نفسك أن تزن همّك الذي سيطر عليك، وأن تراجع هدفك الذي تحلم بتحقيقه، وتبذل عمرك لأجل الوصول إليه. وإن مما تقيس به استقامة منهجك، ويؤشر إلى طهارة قلبك، ورقي عقلك أن تنظر إلى الوسيلة التي تنتهجها لتحقيق هدفك، أهي وسيلة شريفة، أم شيء آخر.

إن الحياة كتاب لا تنتهي صفحاته، وكلما عشتَ بين الناس مطلعاً على تفاصيل حياتهم، متأملاً ما يقصونه عليك من أسرار معيشتهم، رأيتَ ما لا تراه في الكتب المسطورة، بل ما يعجز عقلك عن تصور وجوده، ثم تستعين بما يقوله الناس عن أنفسهم على فهم ما تقرأ بين طيات الكتب، وتتيقن أنك كنت ساذجاً حين تصورت أنك قد خبرت الحياة، وفهمت الناس، فالنفوس البشرية بحر لا ساحل له، وإننا بتأمل القرآن وأحوال الناس – في هذا الصدد – نستطيع أن نقرر حقائق:

أولها: إن كل إنسان يعيش في الدنيا مدفوعاً بهمه، وبقدر الهم تكون الحركة، وبنوعية الهم يكون التوجه.

ثانيها: إن الهَمُّ هو الوقود الذي يحرك الإنسانَ من سكونه، وهو المحفز ليتخلى الإنسانُ عن راحته، وهو دافعك إلى إشباع كبريائك.

ثالثها: لن تجد إنساناً طبيعياً يعيش في هذه الحياة بغير هَمّ، ومن عاش بغير همّ، عاش فارغ النفس لا يشعر بقيمة الحياة، ولو أكل، وشرب، وأشبع جميع رغباته، فسوف يظل في نفسه فراغ لا يسده إلا هم يحمله، فهمك هو ما يجعل لحياتك معنى، هدف هو ما يجعل لحياتك قيمة.

رابعها: إن هموم الناس محصورة بين طرفين متباعدين وأوساط بينهما، أما الطرفان ففي أقصى اليمين هَمُّ الأنبياء وأتباعهم، وفي أقصى الشمال هَمُّ الأشقياء وأشباههم، وبين الهمين هموم تقترب من أحد الهمين، أو تبتعد عنهما.

إن هَمُّ الأنبياء عبادة الله، وتحقيق التوحيد، والتمكين لدين الله في نفوس الناس، وربوع الأرض، وبذل الأخلاق الحسنة للعالمين، وبهذا تعمر الحياة، ويسعد الناس، قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ (الأنعام: ١٦٢ - ١٦٣). وهذا الهدف لا يتحصل إلا بوعي، وهم، وإخلاص. ويقاس وعيك بمقدار فهمك لقضيتك، واستيعاب تفاصيلها، والاطلاع على عبرة الماضي، ومعرفة الحال واستشراف المآل. ويعرف الهم بقدر الحركة فصاحب الهم الصادق لا يهدأ، بل يتحرك ما استطاع لتحقيق همه. ونستدل على الإخلاص بقدر التضحية، والمخلص يضحي.

وأما هَمُّ الأشقياء فإشباع الشهوات بإطلاق العنان لها، وتحصيل القوة بحيازة أسبابها، وتحقيق مصلحتهم بأي وسيلة، وعلى حساب أي شيء، وبهذا يعبد الإنسان نفسه؛ فيشقى، وتخرب الحياة، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِهِمُ الْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ (الحجر: ٣)، وحديث أبي هريرة ﷺ قال: «سمعت رسول الله

ﷺ يقول: "لا يزال قلب الكبير شاباً في اثنتين: في حب الدنيا وطول الأمل[1]".

من الناس من يعيش بهم كهم النملة، تقضي العمر كله في جحر مظلم، تعمل بكامل قوتها، ونشاطها؛ لتجمع في الصيف ما تأكله الشتاء، فحياتها شقاء لأجل لقمة تأكلها، وشهوة تتلذذ بها، ومن كان على شاكلة النمل فقد وزن نفسه. ومن الناس من يعيش بطبع الصقور، لا يعيش إلا عالياً، ولا يحلق إلا مرتفعاً، فإذا رأى رأياً، كان رأيه نافذاً، وإذا قال قولاً كان قوله صائباً.

أصحاب الهم الكبير متخففون من الدنيا، لكنهم يعيشونها، ويعرفون كيف يستمتعون بها بناء على فهم حقيقتها، فهم يعيشونها، لكنها لا تستعبدهم، وهم يعمرونها، لكنها لا تستوعبهم، وهم يأخذون من نعيمها، لكنها لا تغرهم، فهذا أبو الأنبياء – عليه السلام – يتزوج، ويشتاق إلى الولد، لكنه يرضى أن يلقى في النار لأجل دينه، كما يرضى بذبح ولده تحقيقاً لإسلامه.

لقد كان اختياري لقصة طالوت وجالوت اختياراً مدفوعاً بِهَمّ سيطر عليّ منذ عام ٢٠١١م، دفعني هذا الهم إلى محاولة أن أقدم فكراً نفتقر إليه في هذه المرحلة، يرتكز هذ الفكر على فهم الكتاب والسنة فهماً متأثراً بالواقع، باعتبارهما مرجعية علياً جمعت بين ثبات المبدأ ومرو نة التفاصيل، وإيماناً بقوله تعالى: ﴿لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَٰبًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ (الأنبياء: ١٠). فذكرنا في كتاب ربنا، وما علينا إلا أن نقرأ، ونفهم، ونتفكر، ونتدبر، ونأخذ من القرآن ما نصلح به واقعنا، وما حدث أنني كنت أفسر هذه القصة لجمع من المستمعين – معظمهم من الشباب – مستهدفاً ملء فراغ معرفي حضاري في جيل الشباب الصاعد، ذلك الجيل الذي تشكلت ثقافته بناء على صورة

١ – صحيح البخاري (٨/ ٩٨) رقم (٠٢٤٦).

مرئية مصنوعة، أو خبر مسموع موجه، أو لقاء مهدف في برنامج، أو قراءة منشور على صفحات التواصل الاجتماعي لم يكتبه متخصص، أو كلام فارغ لا جذر له لا وتد، هذا كله أصاب معظم هذا الجيل بمرضين فكريين خطيرين :

• المرض الأول الهشاشة الفكرية، وأعني بها القشور المعرفية التي تفتقر إلى قراءة متعمقة، فضلاً عن دراسة تأصيلية. هذه القشور ينبهر بها العقل الفارغ ويظنها علماً، هذه الهشاشة لا تبني عقلاً واعياً يحصن صاحبه من استلاب هويته، ولا تحمي صاحبها ممن يريد اغتياله فكرياً، وضدها الصلابة الفكرية المبنية على الدراسة الواعية، والنظرة الناقدة، والبحث المتأني، والمشارب المتنوعة.

• والمرض الثاني خطأ التصور وهو صورة ذهنية وهمية عن الأشياء. وغالباً ما تتكون هذه الصورة الذهنية الخاطئة بسبب أن صاحبها يبني تصوراتها على ثقافة مسموعة، أو مرئية، ولا يجهد نفسه في القراءة، والبحث، والتنوع، والتفكر، والمقارنة.

إن الهشاشة الفكرية تجرف صاحبها إلى سيولة فكرية مقلقة، فهو يميل نحو من يملأ رأسه أولاً، وهو متأرجح إذا سمع اختلافاً في قضية، وهو متردد إذا استمع من يشككه في مذهبه، وهو متنقل كلما سمع جديداً أعجبه، وهو متحير إذا سمع كبيرين يختلفان، و هو متحيز إذا سمع ما يوافق هواه، وقد ينتهي أمره إلى فقد الثقة في الجميع، ثم التحول التام في عكس الاتجاه، أو الانعزال المميت وتفضيل حياة الجحور. وأما خطأ التصور، فأصابه بالانفصال عن الواقع، والانحراف عند الحكم على الأمور، فهو يرى الأشياء بناء على مادة مصنوعة، وليس واقعاً معيشاً، وكما هو مقرر: "الحكم على الشيء فرع عن تصوره".

(٢) الإنسان بين الانحراف والانجراف

الإنسان مخلوق عجيب، غريب التركيب، فلا هو الحيوان المندفع بغريزته؛ فتتوقع ما سوف يفعله، ولا هو الآلة المبرمجة؛ فلا يتخطى حدوده حين يؤدي وظيفته، ولا هو المَلك المعصوم؛ فتأمن جانبه حين تقترب منه، ولا هو الشيطان الرجيم، فتحذر ألاعيبه وإن اختفى عنك، لكنك تستطيع أن تقول بيقين: "إن الإنسان هو كل ما سبق، وإن شئت فقل: هو الكون كله مُلخص في كائن"، ففيه من غرائز الحيوان هجمة السباع، وألفة الدواجن، وطيش الفيلة، وسكنة الشرانق، وتحليق الصقور، واندساس الزواحف، ولدغة الأفاعي، ورقة البلابل، وتحمل الحمار، وخيلاء الخيول، وذل القرود، وشجاعة الذئاب، وخسة الخنازير، ووفاء الكلاب، وحقد الجمال، وذكاء الغراب.

وفيه قدر من صفاء الملائكة فلا يرضى إلا بالطهر، ولا يسعد إلا بفعل الخير، وفيه من صرامة الآلة فهو يعمل وينتج بخطة ونظام وإحكام، وفيه من قبائح الشيطان ففيه حقد وحسد وأنانية وكبر وشعور بالفوقية وإلصاق معايب نفسه بغيره.

وفيه من مظاهر الطبيعة شبه، فقد تجد في أفعاله ما يشبه الشمس تحرق هناك، وتدفئ هنا، وتنبت الزرع في كل مكان، وقد تجد فيه هدأة القمر وتناقضه، فقد تجد فيه نوراً بلا حرقه، أو وجهاً فضياً، وقلباً معتماً. وقد تجد فيه سرعة الرياح، أو اندفاع الإعصار، أو رقة النسيم، وقد تجد فيه غرائب الأرض التي تحلل الأجسام، وتخفي القبيح، وتختزن الكنوز، وتغذي الثمار، وتغسل يدك من طينها بعدما تأكل ثمرها!!.

(٣) الكنز والمفتاح

القرآن كنز يستفتحه كل عصر بأدواته، ويفهمه كل عقل متأثرًا بواقعه، وهو بحر لا ساحل له تأخذ منه على قدر فهمك، وهمك، وقد قيل: "العطاء على قدر الدلاء". وهو

عزيـز لن يعطيـك فرائده إلا بالإخلاص، والاسـتعانة، ودوام النظـر، والتفكر، والتدبر، وهـو كريم كلما اُستثير أعطى، وكلما امتدت إليه يد لم يُصْفِرْها، قال عبد الله بن مسـعود - رضي الله عنه - : "إِذَا أَرَدْتُمُ الْعِلْمَ، فَأَثِيرُوا الْقُرْآنَ، فَإِنَّ فِيهِ عِلْمَ الْأَوَّلِينَ، وَالْآخِرِينَ"، فالحق أن نستزيد من العلم بالقرآن بكثرة مدارسته، فإنه لا يَخلَق على كثرة الرّد، بل تَرْكُه دون إثارة فيه أفدح خسـارة ، فعن عَنْ مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ، قَالَ: "سَـيَبْلَى الْقُرْآنُ فِي صُدُورِ أَقْوَامٍ كَمَا يَبْلَى الثَّوْبُ، فَيَتَهَافَتُ، يَقْرَءُونَهُ لَا يَجِدُونَ لَهُ شَـهْوَةً وَلَا لَذَّةً، يَلْبَسُـونَ جُلُودَ الضَّأْنِ عَلَى قُلُوبِ الذِّئَـابِ، أَعْمَالُهُـمْ طَمَعٌ لَا يُخَالِطُهُ خَوْفٌ، إِنْ قَصَّرُوا، قَالُوا: سَـنَبْلُغُ، وَإِنْ أَسَـاءُوا، قَالُوا: سَيُغْفَرُ لَنَا، إِنَّا لَا نُشْرِكُ بِاللَّهِ شَيْئًا[1]". وهو حَمَّال أوجه، وإلى هذه النكتة أشار أبو الدرداء رضي الله عنه حين قال: "لا يكون أحد فقيها حتى يحمل الآية على محامل متعددة[2]".

و قد قيل: اثنان لا يخجل أحدهما من الآخر ولا يستحي منه ولا يعارضه، القرآن كتاب الله المقروء، والكون كتابه المنظور، لذلك لا تصادفُ نَفْرةً من أحدهما في مواجهة الآخر[3].

إن القصة القرآنية تفعِّل الأحداث الماضية، وتعرضها كأنها حدث حي؛ ليكون إحدى الأدوات التي تكشـف الواقع، وتستكشف المستقبل، وخلاصة القول: إن القصة القرآنية إذا قرئـت بتفكـر المهموم بواقعه، المتمسـك بثوابته، الفاهم لشريعتـه، المتحدي بعقيدته، فأنت أمام منهاج يمنحك بصيرة على المستوى الفردي، يمكنك من الاستئناف الحضاري على المستوى الجمعي.

تأسيسـاً عـلى ما سـبق نقـول: مـن المداخل التـي ندخل منها لدراسـة قصـة طالوت وجالـوت أنهـا قصة شـعب ذاق الذل يريد أن يبنـي دولة عزيزة يحيا الإنسـان فيها كريماً،

١ - سنن الدارمي (٤/ ٧٠١٢).

٢ - تفسير القاسمي = محاسن التأويل (١/ ٤٢).

٣ - انظر عناية المسلمين بإبراز وجوه الإعجاز في القرآن الكريم - حسن عبد الفتاح أحمد (ص: ٣) .

ويعيش فيها آمناً، لا يذله حاكم ظالم، ولا يستعبده عدو باطش، إنها قصة شعب يريد أن ينتقل من عصر ذل إلى عصر العزة.

ومن هذا المنطلق نستطيع أن نفسر السياق الذي وردت فيه القصة و نستطيع أن نفسر مجيئها في سورة البقرة قال تعالى: ﴿ ۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَٰرِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ ٱللَّهُ مُوتُواْ ثُمَّ أَحْيَٰهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٢٤٣﴾ وَقَٰتِلُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٤﴾ مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةً ۚ وَٱللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُۜطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ (البقرة:٢٤٣ - ٢٤٥).

هذه هي الآيات السابقة مباشرة على قصة طالوت وجالوت جاءت تمهيدًا للقصة، وهو تمهيد مرتبط بموضوعها، فالآية الأولى تتحدث عن قوم تركوا ديارهم، وفرطوا فيها؛ خوفاً من الموت؛ فأماتهم الله جميعاً، ثم أحياهم، وفي هذا إعلام للمؤمنين أن الفرار من الموت، أو القتل لا ينجي، وأن الأمان، والسلامة، لا يطيلان العمر وإنما الأمر كله في ذلك مردود إلى الله، فبيده الحياة، وبيده الموت، فمن علم ذلك، وآمن به لا يجبن، ولا يتراجع، بل تهون عليه نفسه في سبيل الله؛ لذلك جاءت الآية الثانية تدعو للقتال في سبيل الله، فقال تعالى: ﴿وَقَٰتِلُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (البقرة:٢٤٤).

والآية الثالثة تتحدث عن النفقة في سبيل الله، وغالباً ما يربط القرآن بين التضحية بالنفس والتضحية بالمال، فبغير هاتين التضحيتين لا تبنى الدول، ولا تقوم دعوات الأنبياء، ولا تتحول أفكار المصلحين إلى كيانات تنشر الحق، والعدل، وتحفظها. قال تعالى: ﴿لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُوْلِى ٱلضَّرَرِ وَٱلْمُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ دَرَجَةً ۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ

عَلَى ٱلۡقَٰعِدِينَ أَجۡرًا عَظِيمًا ﴾ (النساء :٩٥). وقوله: ﴿وَجَٰهِدُواْ بِأَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ (التوبة: ٤١) . و مثل ذلك في القرآن كثير .

ثم ذكر الله أن القبض، والبسط، والغنى، والفقر بيده، فالتصرف كله بيديه، ومدار الأمور راجع إليه، فالإمساك لا يبسط الرزق، والإنفاق لا يقبضه، ومع ذلك فالإنفاق غير ضائع على أهله، بل لهم يوم يجدون ما قدموه كاملًا موفراً مضاعفاً، فلهذا قال: ﴿وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ﴾ فيجازيكم بأعمالكم[1].

١ - تفسير السعدي (ص: ٦٠١) بتصرف .

ذلك الكتاب

قبل الانطلاق تمهيد، وتأسيس.

على سبيل التمهيد للدخول إلى قصة طالوت وجالوت، والتأسيس لفهمها فهماً عصرياً يتفاعل مع الواقع تأثراً، وتأثيراً، نقدم بمقدمتين: الأولى لا أمة بغير كتاب، والثانية القرآن منهاج، وعهد، وميثاق، وخلاصة هذا المنهاج سورة البقرة، فهي سنام القرآن، وفسطاطه الجامع، وإليك تفصيلاً لهذا الإجمال.

• المقدمة الأولى: لا أمة بغير نبي وكتاب.

إنك لن تجد أمة من الناس أقامت دولة قوية، وصنعت حضارة مؤثرة، ووجهت حركة التاريخ، إلا ولها نبي تتخذه أسوة، وكتاب تسير على منهاجه، لها نبي تتخذ من أفعاله هدياً تهتدي به، ولها كتاب تتخذ من أفكاره قيماً حضارية ضابطة لحياتها، وحاكمة عليها، هذه القيم تضبط وتحاكم نظامها السياسي، وتضبط وتحاكم بناءها الاجتماعي، وتضبط وتحاكم نشاطها الاقتصادي، وتضبط وتحاكم قيمها الأخلاقية.

إن الأمم التي وصفها التاريخ بالهمجية كان لها كتاب تعود إلى أحكامه؛ لتنظيم حياتها فما ظنك بالأمم التي نصفها بالرقي والتحضر؟!، إن أمة كالتتار التي اشتهرت بهمجيتها لا يذكر اسمها إلا ويتمثل أمامك صور التذبيح والتهديم والتحريق والتخريب، هذه الأمة كان لها كتاب تحتكم إلى أحكامه، لقد اتخذت من كتاب الياسق دستوراً لها، يقول ابن كثير: "وَجِنْكِزْخَانُ هُوَ صَاحِبُ الْيَاسِقِ، وَضَعَهَا لِيَتَحَاكَمَ إِلَيْهَا التَّتَارُ وَمَنِ اتَّبَعَهُمْ

مِـنْ أُمَـرَاءِ التُّرْكِ - مِمَّنْ يَبْتَغِي حُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ - وَهُوَ وَالِـدُ تُولِي، وَجَدُّ هُولَاكُو بْنِ تُولِي - الَّذِي قَتَلَ الْخَلِيفَةَ الْمُسْـتَعْصِمَ وَأَهْلَ بَغْدَادَ فِي سَنَةِ سِتٍّ وَخَمْسِينَ وَسِتِّمِائَةٍ[1]". ويقول أحمد شاكر: "ملكهم جنكيز خان، الذي وضع لهم (الياسق) وهو عبارة عن كتاب مجموع من أحكام قد اقتبسـها عن شرائع شـتى، من اليهودية والنصرانية والملة الإسـلامية وغيرها، وفيها كثير من الأحكام أخذها من مجرد نظرة هواه؛ فصارتْ في بنيه شرعًا متبعًا[2]".

وكذلك فإن الأمم الأوروبية في عصر نهضتها الحديثة حين اسـتبعدت دين الكنيسـة، وقيـم القساوسـة بحثت عـن بديل فكري ينتج لهـا قيماً حضارية تؤسـس عليها نهضتها، ووجدت ضالتها في فلاسفتها الذين مزجوا ما ورثوه من بقايا الفكر اليوناني مع ما اقتبسوه من الحضارة الإسلامية من مناهج البحث، والعلمي التجريبي، والمخترعات العجيبة التي سـبق المسـلمون بها العالم بداية من صناعة الورق وانتهاء ببناء المراصد الفلكية، وصناعة الصواريخ[3]، مع العلم بأن الذي مهد لهم فهم ما تبقى من الفلسـفة اليونانية هم فلاسـفة المسلمين من أمثال ابن رشد، وابن سينا وغيرهما الذين شرحوا غامضها، وبوبوا ما تفرق منها، وأصلحوا فاسدها.

لقد استبعدت أوروبا دين الكنيسة كمرجية دينية، وأحلت الفكر الفلسفي محل القيم الكنسـية؛ فخرجت - سياسـياً - من أكذوبة الحكم بالحق الإلهي إلى فكرة الحكم بالعقد

---

١ - البداية والنهاية ط هجر (٦١/ ٧٢٧).

٢ - جمهرة مقالات أحمد شاكر (٢/ ٥٩٥). جمعها وأعدها واعتنى بها: عبد الرحمن بن عبد العزيز بن حماد العقل، الناشر: دار الرياض، الطبعة: الأولى، ١٤٢٦ هـ - ٢٠٠٥ م.

٣ - راجع كتاب (شمس الله تشرق على الغرب: أثر الحضارة العربية في أوروبة) هو كتابٌ من تأليف المستشرقة الألمانية سيغريد هونكه يتناول تاريخ العرب وتأثير حضاراتهم وعلمائهم واختراعاتهم على الحضارة الغربية وما نجده في عصرنا هذا مرتبط بالحضارة الإسلامية، وتأثر اللغات الأوروبية باللغة العربية وحضارة الأندلس، والكتاب يقع في سبعة أبواب كلها جديرة بالقراءة.

الاجتماعي، فتم استبعاد النظام الملكي والإقطاعي كنظام سياسي، وتم اعتماد المنهج الديمقراطي؛ فالحاكم يأتي باختيار الشعب، ويُنزع من ملكه باختيار الشعب كذلك، وكما يعطي الشعب للحاكم سلطة يضع آلية لمحاسبته، وكما يتنازل الشعب عن جزء من حريته لسلطة الحاكم فالحاكم يستخدم ذلك لمصلحة شعبه، وتحقيق أمنه.

واستبعدت – فكرياً – المنطق الأرسطي كمرجعية فكرية – واعتبروه عقيماً – إلى مرجعية العلم التجريبي القائم على الإبداع والبحث والتجريب، والإثبات.

ولا أبالغ إذا قلت: إن الشعوب الأوروبية أحلت الفلاسفة محل الأنبياء، ففي مجال السياسة والاجتماع يبرز فلاسفة العقد الاجتماعي[١] من أمثال: توماس هوبز[٢]، مونتسيكيو[٣]، وجون لوك[٤]، وجان جاك روسو[٥]. وفي مجال السياسة يأتي في المقدمة

---

١ – اختلف فلاسفة العقد الاجتماعي في تفاصيل أطروحاتهم إلا أنهم اتفقوا على أن الفرد العقلاني يتخلى طواعية عن حريته الطبيعية من أجل الحصول على منافع النظام السياسي، فخلاصة هذا العقد تنازل مقابل منفعة.

٢ – توماس هوبز (٥ أبريل ١٥٨٨ – ٤ ديسمبر ١٦٧٩)، عالم رياضيات وفيلسوف إنجليزي. اشتهر بأعماله في الفلسفة السياسية. نشره كتابه لوياثان عام ١٦٥١ والذي كان الأساس لمعظم الفلسفة السياسية الغربية من منظور نظرية العقد الاجتماعي. كان توماس هوبز أحد مؤسسي فلسفة السياسة الحديثة. وظل فهمه للبشر باعتبارهم مادة وحركة تنفذ نفس القوانين المادية مثل أية مادة وحركة أخرى ذات تأثير كبير؛ وظل اعتباره للطبيعة البشرية باعتبارها تعاونًا مركزه الذات وللمجتمعات السياسية قائمة على «العقد الاجتماعي» أحد أهم الموضوعات في الفلسفة السياسية.

٣ – هو صاحب نظرية فصل السلطات الذي تعتمده حالياً العديد من الدساتير عبر العالم. في عام ١٧٤٨، نشر كتابا عنوانه روح القوانين ولكن بدون الإعلان عن اسمه كاتبا لهذا الكتاب. استقبل هذا الكتاب جيدا في كل من بريطانيا والولايات المتحدة، حيث أثر في الآباء المؤسسين للولايات المتحدة أثناء كتابتهم للدستور الأمريكي وهو من أشهر فلاسفة عصر التنوير والحداثة.

٤ – جون لوك (٢٩ أغسطس ١٦٣٢ – ٢٨ أكتوبر ١٧٠٤) (بالإنجليزية: John Locke) هو فيلسوف تجريبي ومفكر سياسي إنجليزي.

٥ – ولد في جنيف، ٢٨ يونيو ١٧١٢ وتُوفي في إيرمينونفيل، ٢ يوليو ١٧٧٨ (عن عمر ناهز ٦٦ عاماً) يُعتبر كتابه: العقد الاجتماعي حجر الزاوية في الفكر السياسي والاجتماعي الحديث، يحدد كتاب العقد الاجتماعي

الاسم الأبرز مكيافيلي، وفي الاقتصاد نجد آدم سميث[1]، وفي الإصلاح الديني نذكر مارتن لوثر[2]، وفي الاقتصاد آدم سميث وهو فيلسوف واقتصادي ليبرالي، يعد مؤسس علم الاقتصاد السياسي وواضع مبادئه الأولى في كتابه المشهور "ثروة الأمم" الذي نشر عام ١٧٧٦ . وقد قامت على أفكاره ونظرياته أسس "المدرسة الكلاسيكية" في الاقتصاد[3].

لروسو الأساس لنظام سياسي شرعي في إطار جمهوري تقليدي. نُشر الكتاب في عام ٢٦٧١، وأصبح أحد أكثر أعمال الفلسفة السياسية تأثيرًا في التقليد الغربي.

١ – آدم سميث (بالإنجليزية: htimS madA) (٥ يونيو ٣٢٧١ – ٧١ يوليو ٠٩٧١) فيلسوف وعالم اقتصاد اسكتلندي. يُعدّ مؤسس علم الاقتصاد الكلاسيكي ومن رواد الاقتصاد السياسي. اشتهر بكتابيه الكلاسيكيين: «نظرية المشاعر الأخلاقية» (٩٥٧١)، وكتاب «بحث في طبيعة ثروة الأمم وأسبابها» (٦٧٧١). وهو من أهم آثاره، وأول عمل يتناول الاقتصاد الحديث وقد اشتهر اختصارًا، باسم «ثروة الأمم» وهو أول كتاب جامع وملخص لأهم الأفكار الاقتصادية للفلاسفة والاقتصاديين الذين سبقوه أمثال فرنسوا كيناي وجون لوك وديفيد هيوم.. دعا إلى تعزيز المبادرة الفردية، والمنافسة، وحرية التجارة، بوصفها الوسيلة الفضلى لتحقيق أكبر قدر من الثروة والسعادة.

٢ – مارتن لوثر (٠١ نوفمبر ٣٨٤١ – ٨١ فبراير ٦٤٥١) راهب ألماني وقس وأستاذ لاهوت ومُطلق عصر الإصلاح في أوروبا من بعد اعتراضه على صكوك الغفران التي تصدرها الكنيسة وهو أحد الذين احتجوا على فساد الكنيسة، فسمي مذهبهم (بالبروتستانتية) أي المحتجين، وقد سموا أنفسهم (بالإنجليين) وعلى كنيستهم (الكنيسة الإنجيلية) لدعواهم أنهم يتبعون الإنجيل ويفهمونه بأنفسهم دون الحاجة إلى البابوات.

٣ – وقد سطر سميث في هذا الكتاب الأسس العلمية الأولى للاقتصاد السياسي معتمدا في ذلك على المنهج العلمي في البحث، مما جعله يؤسس للاقتصاد بوصفه علما من العوم.

صاغ سميث الفرضيات الأساسية للتحليل الاقتصادي الليبرالي:

المصلحة الشخصية هي التي تحفز الناس وتقود العالم.

السوق كفيل بتحويل المصالح الشخصية الأنانية للأفراد إلى مصلحة جماعية.

المنافسة قادرة على لعب دور الضبط بنجاح.

آلية الأسعار تقود الأسواق إلى حالة التوازن.

توزيع العمل والتخصص هما مصدر الفعالية الإنتاجية.

التبادل قادر على تحسين وضع الجميع.

وطوّر نظريته الشهيرة حول "اليد الخفية" التي تقول بأن السوق قادرة على المواءمة بين المصالح الشخصية الأنانية والمتضاربة للأفراد وتقود في النهاية إلى تحقيق مصلحة الجميع، كأن يدا تعمل في الخفاء على السير

المقدمة الثانية

القرآن منهاج، وسورة البقرة سنامه الأعلى وفسطاطه الجامع.

القرآن كتاب الله، وهو منهاج المسلمين، وبدهي - والبدهي لا يفتقر إلى دليل - أن القرآن هو الكتاب الذي أقام المسلمون حضارتهم على منهاجه[1]، فمن القرآن أخذوا القيم الحضارية التي أسست لحضارة فرضت نفسها بما تمتلكه من أسباب القوة المعنوية، والمادية، وانبسط تأثيرها العلمي، والثقافي، والروحي على الأمم الأخرى - ولا يزال - حتى مع انقباض سلطانها المادي.

ومعلوم أن للقرآن تسميات متعددة منها الفرقان كما في قوله تعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾ (الفرقان:١)، والذكر كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ (الحجر:٩)، والوحي كما في قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أُنذِرُكُم بِٱلْوَحْىِ ۚ وَلَا يَسْمَعُ ٱلصُّمُّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ﴾ (الأنبياء:٤٥)، لكن السياق

بالناس في اتجاه النظام بدلا من الفوضى.

أحدثت الأفكار الاقتصادية التي ضمنها سميث كتابه قطيعة مع الأفكار المركنتيلية السائدة قبله، والتي كانت ترى أن الثروة تكمن في مراكمة المعادن النفيسة من ذهب وفضة بتشجيع الصادرات وتقليل الواردات، أو الفيزيوقراطية التي تعتبر أن الأرض هي مصدر الثروة.

فقد آمن سميث خلافا لمن سبقوه بأن العمل المنتج للسلع والخدمات هو المقياس الحقيقي لثروة الأمم، ودعا إلى تخصص كل بلد في إنتاج السلع التي يُحسِن إنتاجها بأقل تكلفة مقارنة مع بقية البلدان واستيراد بقية السلع (نظرية الميزة المطلقة) من أجل مضاعفة حجم السلع المنتَجة في العالم ورفاهية الجميع.

١ - قد أوضحت هذا وبسطت فيه القول في كتابي: الأسماء الحسنى الجزء الأول منهاج تربية المسلم، والجزء الثاني: الأسماء الحسنى قراءة نسقية في الإيمان والحضارة.

القرآني انتقى من تسميات القرآن كلمة الكتاب فبدأ بها سورة البقرة؛ لأن السورة منهاج بناء أمة، ولا أمة بغير كتاب، ونبي!!.

قال تعالى: ﴿الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ﴾ (البقرة: ١ - ٢)،"الكتاب" هذه الكلمة هي مبتدأ السورة، وهي - كذلك - جذر موضوعاتها، وهي المفتاح لمن يبحث عن نسق تنتظم فيه موضوعاتها المتنوعة المتكاملة التي تبدو للقارئ العجول متفرقة؛ فبهذه الكلمة "الكتاب" تستطيع أن تعيد موضوعات السورة كلها إلى أصل واحد منظومة في نسق متكامل، هذه الكلمة هي المرتكز الذي إذا ارتكزت عليه، ثم انطلقت سائحاً متنقلاً متفكراً متدبراً أدركت الإجابات عن الأسئلة الآتية:

- لم طالت السورة؟!
- ولم تعددت موضوعاتها، وتنوعت؟!
- وما الرابط بين هذه الموضوعات المتنوعة؟!
- ولم سميت "سورة البقرة" بهذا الاسم بالرغم من عرضها لموضوعات أبرز وأكبر من قصة بقرة بني إسرائيل؟!
- ولم ختمت بقوله تعالى: "سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا"؟!
- ويمكن أن نضيف: لم جاءت كلمة "وَسَطًا" في منتصف السورة باعتبار العد[1]؟!.

كل هذه الأسئلة وغيرها تتضح الإجابة عنها إذا حددنا أمرين: الأول الهدف العام للسورة، والثاني: ما مفهومنا لكلمة الكتاب؟.

١ - عدد آيات سورة البقرة (٦٨٢) وكلمة "وسطاً" جاءت (٣٤١).

• الهدف العام للسورة.

تهدف السورة – والله أعلم بمراده – إلى تقديم منهاج لبناء أمة مؤمنة قوية، تقوم قوتها على أساس عقدي هو الإيمان بوحدانية الله إلهاً واحداً لا شريك له، وتفعيل شريعته عملاً صالحاً يشمل كل مناشط أفراد الأمة، ثم تبليغ دين الله إلى الناس كافة، هذه الأمة المؤمنة القوية لا تقوم إلا بفرد قوي تشرّب الإيمانَ قلبُه، وأسرة متماسكة بُنيت على كتاب الله وسنة نبيه ﷺ؛ لذلك لا تعجب إن رأيت قصة طالوت وجالوت – وهي قصة بناء دولة – جاءت بعد توجيه القرآن للوالدات كيف يرضعن أولادهن؟!!، فبناء دولة قوية يبدأ من أسرة منضبطة بأحكام إلهية.

وإذا كان القرآن منهاجاً، فخلاصة هذا المنهاج هي سورة البقرة؛ لذلك كان من أوفق، وأصدق، وأعمق ما قيل في تلقيب سورة البقرة أنها فسطاط القرآن، وأنها سنام القرآن[1]، وسنام الشيء أعلاه، وأشرفه، وغالب ما ورد في القرآن سوف تجده في سورة البقرة إجمالاً أو تفصيلاً، وتأمل صدر السورة في قوله تعالى: ﴿الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ﴾ (البقرة: ١ – ٣). وصفت الآية المتقين بصفات ثلاث وردت بترتيب مقصود كما يلي:

١) يؤمنون بالغيب، وهذا من أسس الإيمان بالله، فمن علامات رسوخ المعتقد أن تؤمن بشيء لا تراه، والمؤمن الحق يؤمن بالله خالقاً مهيمناً، وملكاً قدوساً، وحكماً حكيماً وهو لا يراه.

---

١ – عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ قَالَ: «لِكُلِّ شَيْءٍ سَنَامٌ، وَسَنَامُ الْقُرْآنِ سُورَةُ الْبَقَرَةِ، وَإِنَّ لِكُلِّ شَيْءٍ لُبَابًا، وَإِنَّ لُبَابَ الْقُرْآنِ الْمُفَصَّلُ، وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَتَخْرُجُ مِنَ الْبَيْتِ الَّذِي يُقْرَأُ فِيهِ سُورَةُ الْبَقَرَةِ، وَإِنَّ أَصْغَرَ الْبُيُوتِ الْجَوْفُ الَّذِي فِيهِ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ شَيْءٌ». رَوَاهُ الطَّبَرَانِيُّ، وَفِيهِ عَاصِمُ ابْنُ بَهْدَلَةَ، وَهُوَ ثِقَةٌ وَفِيهِ ضَعْفٌ، وَبَقِيَّةُ رِجَالِهِ رِجَالُ الصَّحِيحِ. انظر.

٢) ويقيمون الصلاة، وهذه أم العبادات، والركن الثاني في الإسلام بعد الشهادتين، وهي رمز لأركان الإسلام العملية.

٣) ومما رزقناهم ينفقون، والإنفاق في سبيل الله ترجمة لصحة المعتقد الصحيح، وأثر التعبد المقبول؛ لذلك فالصدقة دليل على صدق الإيمان، ورفعة السلوك، ورحمة القلب، وسمو التعايش؛ فالإنفاق في سبيل الله فيه مقاومة لشهوة النفس، وفيه إقامة لدعوة الرب، وفيه أنك إنسان يشعر بالضعيف، ويتعدى خيره لغيره.

ولأن الأمر أمر بناء الإنسان يستطيع أن ينهض بالتكاليف الإلهية على المستوى الفردي؛ لتستقيم نفسه؛ ليستطيع أن يبني أمة ذات شوكة تحتضن هذا الدين، وتفعّله في حياتها، وتنشره بين الناس جميعاً فبرز في السورة الحديث عن أربعة قضايا كبرى: الإخبار عن الله (العقائد)، والإخبار عن الخلق (القصص)، والأمر والنهي (التشريع)، وأنماط النفس البشرية، وإليك عرضاً مختصراً عن هذه القضايا.

١) الإخبار عن الله (العقائد): ومما ورد في السورة كإخبار عن الله أنه الخالق البارئ الرازق المحيي المميت الذي يرجع الناس إليه في يوم القيامة للحساب والجزاء، ولأنه كذلك - جل جلاله - فهو الملك المستحق للعبادة وحده لا شريك له، إليه الرَغَب، والرَهَب، وتاج هذه الآيات قوله تعالى: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٨﴾ هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ ۚ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ (البقرة:٢٨-٢٩). وقوله تعالى في آية الكرسي: ﴿اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ۚ لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ۚ لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۗ مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِندَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ ۚ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ ۚ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ ۖ

وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفۡظُهُمَاۚ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡعَظِيمُ ﴾ (البقرة: ٢٥٥).

٢) الإخبار عن الخلق (القصص): عرضت السورة قصة بدء خلق آدم، وحوار الملائكة مع ربهم الذي أشار إلى أن الفساد صناعة بشرية، قالت الملائكة: ﴿أَتَجۡعَلُ فِيهَا مَن يُفۡسِدُ فِيهَا وَيَسۡفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحۡنُ نُسَبِّحُ بِحَمۡدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ﴾ (البقرة: ٣٠)، وأن العلم الذي هو تعبد لله، ومنفعة للخلق هو شرف الإنسان، وطهارته، وسر تفوقه، فالعالم المسلم يقرأ باسم ربه تعبداً، لينفع الذين خلقهم الله، كما عرضت السورة لبدء الصراع الذي لا ينتهي بين الإنسان القابل للوسوسة، وإبليس القادر على الإغواء، كذلك عرضت لنماذج من الاستخلاف: استخلاف آدم الذي سكن الجنة ثم أخطأ، ثم تاب، وأصلح، واستخلاف إبراهيم الذي كان مثالاً مشرقاً للاستخلاف المستقيم، واستخلاف بني إسرائيل الذي كان مثالاً مخزياً، كذلك عرضت السورة طرفاً من قصص الأنبياء، والأمم السابقة، إلا أن تاج هذه الآيات قصة طالوت وجالوت[1]، قال تعالى: ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلۡمَلَإِ مِنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ مِنۢ بَعۡدِ مُوسَىٰ إِذۡ قَالُواْ لِنَبِيّٖ لَّهُمُ ٱبۡعَثۡ لَنَا مَلِكٗا نُّقَٰتِلۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ قَالَ هَلۡ عَسَيۡتُمۡ إِن كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِتَالُ أَلَّا تُقَٰتِلُواْۖ قَالُواْ وَمَا لَنَآ أَلَّا نُقَٰتِلَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَدۡ أُخۡرِجۡنَا مِن دِيَٰرِنَا وَأَبۡنَآئِنَاۖ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقِتَالُ تَوَلَّوۡاْ إِلَّا قَلِيلٗا مِّنۡهُمۡۗ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ (البقرة: ٢٤٦).

٣) الأمر والنهي (تشريع): مثل إباحة الأكل من الطّيّبات، والحفاظ على حق الحياة بتشريع القصاص، والقتال في سبيل الله، وأحكام أركان الإسلام: إقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، والحج والعمرة، إنفاق المال في سبيل الله تحقيقا للتّكافل الاجتماعي في الإسلام، وتحريم الخمر والميسر والرّبا، والولاية على اليتامى، ومخالطتهم في

١ - سوف يتضح هذا في الشرح التفصيلي للقصة.

المعيشة، وأحكام الزواج من طلاق ورضاع وعدّة ونفقة، والوصية الواجبة، وكتابة وثيقة الدّين والإشـهاد عليه والرّهان وكتمان الشـهادة ونصاب الشهادة المطلوب في المعاملات، و أداء الأمانة، وصيغة الدّعاء المطلوبة في التّشريع[1].

١ – التفسير المنير للزحيلي (٣/ ٨٣١).

أنماط الشخصية

(١) الانحرافات الثلاث

عرضت سورة البقرة بعضاً من أنماط الشخصية البشرية، عرضاً يضعك على بعض مفاتيح النفس البشرية؛ لتعرف من أنت؟، وأين أنت؟ وأنت كم تساوي؟، وما مسار حياتك الذي تندفع فيه؟، وما حقيقة ما تدعيه لنفسك، وما وجاهة ما تتهم به الآخرين؟، وما الذي يجب عليك أن تنتبه له قبل أن تتورط فيه؟، وأن تتعظ بمن سبق؛ فالسعيد من وُعظ بغيره، ثم بعد ذلك كله لتعلم أن الناس ليسوا نسخة واحدة؛ فلا تعاملهم بطريقة واحدة، وهم كذلك ليسوا نسخة منك؛ فلا تحكم عليهم من خلال تصورك عن نفسك، وكذلك لتعلم أن أكثر النفوس لا تثبت على حال، بل الناس ألغاز تفاجئك، ويصعب ضبطها على قانون ثابت، وأكثر الناس ثباتاً هم أكثر الناس ديانة، حتى هؤلاء ثباتهم في كونهم ورعين في الحلال والحرام، لكنهم سوف يفاجئونك في المباحات، والمندوبات، والأخلاق الجبلية، فقد تجد ورعاً لكنه مزواج ومطلاق، وقد تجد تقياً يتعفف عن مال الناس، ويخرج الزكاة لكنه بخيل، وقد تجد رجلاً خاشعاً في صلاته لكنه غضوب حين يُستفز، وهكذا الناس لا يعلمهم حقيقة إلا من خلقهم، لكننا قبل عرض هذه الأنماط لابد من تمهيد أراه تأسيسياً لفهم الفكرة.

إذا كان حديثنا عن النفوس، فأمامنا آيتان مركزيتان لابد أن نتوقف عندهما، الآية الأولى قوله تعالى: ﴿ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡ ﴾ (الرعد: ١١)، والثانية قوله تعالى: ﴿وَإِذۡ أَخَذۡنَا مِيثَٰقَكُمۡ وَرَفَعۡنَا فَوۡقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُواْ مَآ ءَاتَيۡنَٰكُم بِقُوَّةٖ

وَٱسۡمَعُواْۖ قَالُواْ سَمِعۡنَا وَعَصَيۡنَاوَأُشۡرِبُواْ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلۡعِجۡلَ بِكُفۡرِهِمۡۚ قُلۡ بِئۡسَمَا يَأۡمُرُكُم بِهِۦٓ إِيمَٰنُكُمۡ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴾ (البقرة: ٩٣)، أما الآية الأولى فتنبه إلى حقيقتين كبيرتين: الحقيقة الأولى أن النفوس البشرية لديها استعداد للتغيير، هذا التغيير قد يكون من الأحسن إلى الأسوأ؛ فلا تغتر بنفسك إن رأيت في نفسك ما يسرك، وارجع بالفضل كله لله. وقد تتغير النفس من الأسوأ إلى الأحسن فلا تيأس من نفسك، ولا تيأس من إصلاح أحد؛ فأنت لا تدري متى ينشرح الصدر، وينفتح القلب؟. والحقيقة الثانية أن تغيير التاريخ مرهون بتغيير النفوس، فالنفوس تتغير أولاً، ثم يتغير واقعك؛ فيتغير التاريخ، وكل تغير في التاريخ سبقه تغير في النفوس، وهنا يقفز السؤال أمامك ويهاجمك، "كيف تتغير النفوس؟!!"، وهذا التساؤل تجيب عنه الآية الثانية، وتحديداً في كلمة "أُشْرِبُوا"، فهذه الكلمة – بحسب قانون اللغة – جاءت فعلاً مبنياً للمجهول، ومزيداً بهمزة تفيد التعدية، وهذا يعني أن الإنسان لم يشرب – ابتداءً – برغبته، وإنما سقاه غيره قصداً، ولهدف محدد؛ لذلك نقول: إن النفوس تظل على فطرتها إلى أن تتسرب إليها مدخلات تربوية؛ فتتشربها تشرباً مقصوداً متعمداً خطط له سلفاً ممن يريد توجيه هذه النفوس، هذه المدخلات التربوية قد تكون حسنة؛ فتحافظ على هذه فطرتك، وترتقي بها، أو قد تكون مدخلات تربوية سيئة تنحرف بالفطرة، وتضيع ما فيها من خير، ثم إن هذه المدخلات قد تكون سيلاً هادراً، فإذا هي كلام مباشر، وتوجيه صريح، وقصد معلن، فالمربي يوجه بأمر فيه جزم، ونهي فيه حزم، ونصح فيه حرص، وانفعال فيه حب، ولهجة فيها صدق، كما في طريقة الأب والأم، وكذلك طريقة المعلمين في مدارسنا، والدعاة في مساجدنا.

وقد تساق إليك المدخلات رشحاً يتسرب في خبث وخفاء يُحْدث – مع الوقت – شرخاً بين الإنسان وهويته، كأن يضعك من يريد السيطرة عليك في سياق تربوي يعيد تشكيل وعيك بأساليب خفيه دون أن تدري، مثل الأعمال الفنية القصصية، والمواد الإعلامية،

وأخطـر ما في القصص الفنية والمواد الإعلاميـة أن يقوم على إخراجها مفكر عميق الفكر ينطلـق مـن فكر يريد غرسـه في الآخريـن، وينظر إلى هـدف يريد تحقيقه فيهـم[1]، ولأن الفكر بطبيعته جاف لا يستساغ، وثقيل لا يفهم، وعسير لا يهضم، فهو ينقل إليك فكرته الجافة في قصة ممتعة، أو مادة إعلامية جاذبة توحي ولا تصرح، وتؤثر ولا تظهر، وتصرخ في أعماق نفسـك بلا صـوت، وتقودك إلى طريقها بلا طوق، وتوجهـك إلى وجهتها بغير عنف، فتسـير في غير طريقـك أعمى وعينك مفتوحة، وتتخذ قرارك وإرادتك مسـلوبة، وكأنما الأمر سـحر. وهذا يقوم على خطوتين مركزيتين: صهر فيه اسـتلاب، وسـبك فيه اسـتعباد، فهـو يغازل الرغبات الخفيـة، ويهيج الغرائز الفطرية، ويؤصـل للأنانية، ولكي ينحـرف بـك يُذيـب الثوابـت التي تربيـت عليها، وينسـف المرجعيـات التـي تتقيد بها، ويهدم الرموز التي تلتف حولها، ويشـوه القدوات التي تتأسـى بأفعالهـا، ويلمع التافهين الذيـن امتلكوا الدنيا بـلا مؤهلات حقيقية، ويوفر مبررات لمن يخطئ؛ ويقدم لك المعاذير مقدماً، ويضخم الخطأ ليشـعر المخطئ بأنه ليس وحده، فالمخطئون كثيرون!!؛ فسـتريح النفس المخطئة؛ فيسـتلب فطرتك السـليمة. بعد هذا التذويب يعيد سبك هذه النفوس، وإعادة تشكيلها؛ ليستعبدك لتحقيق مصالحه، ومن أمثلة ذلك الخبث أن تسمع من ينادي بالحريـة، ويصنع لك رايتها، ويغريك بحملها، ويخرجك مخرج المجاهد في سـبيلها، وهو في الحقيقة يستعبدك تحت رايتها، فباسم الحرية أُطلقت الشهوات بأنواعها: شهوة الفرج، وشهوة المطعوم، وشهوة الملبوس، وشهوة الشهرة، وشهوة المعرفة، وشهوة الأنا؛ فكثرت الحاجات، واتسعت النفقات، وانتهكت الخصوصيات، وانكفأ الإنسان على نفسه، وقُيّد في شَرَك شـهواته؛ فانقسمت أعمارنا أثلاثاً: ثلثاً في شقاء العمل، وثلثاً في واقع لا يرضينا، وثلثًـا في أحـلام يؤرقنـا العجز عنها، وما نقوله هنا ملخصاً هو عـين ما تفعله عولمة رأس

١ – وهنا نؤكد أنه من السذاجة أن نفصل بين ما هو أدبي وفلسفي وسياسي واقتصادي.

المال التي تريد من الإنسان أن يتحول إلى آلة تنتج نهاراً، وحيوان يستهلك ليلاً، وسوف يتدحرج وريداً رويداً إلى عبادة نفسه، ثم عبادة الشيطان، وأدوات ذلك شركات عالمية توجه دولاً، وإعلام مهدف، والإعلام على دين من ينفق عليه، وإفساد في مناهج التعليم، وصناعة رموز فارغة، فلا قيمة لتعليم نافع، أو عمل جاد، وتضخيم الفضائح للإيحاء بأنها منتشرة والأمر عادي، وإخفاء الخير للقول بأنه قد مات، وتقزيم العظماء فلا يبقى في الناس كبير يلتفون حوله، وإثارة الشهوات فيصبح الفجور هو الأصل.

لقد كان من حكمة ربك أن يولد سيدنا موسى – عليه السلام – في العام الذي يُقتل فيه الأطفال، فلم يتربَ في بيت أبيه، في بيئة القهر والجهل التي تربى فيها بنو إسرائيل، بل لم يرد ذكر لأبيه في قصته – عليه السلام –، وإنما ذكرت أمه وأخته، فهما امرأتان تتحركان بعاطفة غريزية، غلبت العقل الملوث بلوثات القهر الفرعوني، فأمه هي التي ألقته في اليم بوحي إلهي، فالتقطه آل فرعون، وهم آملون أن ينفعهم، أو يتخذوه ولداً، ثم بعاطفة الأم قالت لأخته قصيه، فانطلقت بحرارة عاطفتها الغالبة ترقبه عن قرب لا تخشى الخطر، وكلمت ساكني القصر ولم تخف، وعرضت الحل ولم تتردد، فعاد الطفل إلى صدر أمه، لكنه تربى تربية قصور حراً بلا قهر، سيداً بلا ذل، فلم تتشرب نفسه أخلاق العبودية، ولم يتضعضع تضعضع المقهور، ولم ينكسر انكسار الذليل، فلم يتشرب التربية التي تشربها بنو إسرائيل في حكم فرعون. إن الجيل الإسرائيلي الذي نشأ في قهر فرعون وتشرب أخلاق العبودية صار عاجزاً عن العيش سيداً، فهو لا يطيق تكاليفها، بل لا تنزع نفسه إليها، والإنسان حين يجتمع عليه الجهل والقهر يصير كمن ارتدى قميصاً من الجبس، فهو عاجز عن تغيير أوضاعه، مستسلم لما هو فيه، يتوجس من أي تعديل، ويقلق من أي تجديد، لذلك من الخطأ أن تتعامل مع أمثال هؤلاء على أنهم أصحاء أسوياء، بل هم كالأبناء المرضى يحتاجون إلى رحمة الطبيب ومشرطه، ولا بد لهم من شفقة الأب وشدته،

وهكذا كان سيدنا موسى – عليه السلام – رحيماً في شدة، قوياً في رقة، غضوباً في شفقة.

إن النفس البشرية – مهما اختلفنا في توصيف تكوينها – معرضة لثلاثة انحرافات كبرى بحسب المشرب الذي تتشربه، الانحراف الأول أن يحكمها البدن بشهواته؛ فيصير الإنسان عبداً للذاته، ويظن نفسه أسعد الناس!!، والانحراف الثاني أن يحكمها العقل بصرامته؛ فيصير الإنسان عبداً لذاته، ويظن نفسه أفهم الناس!! وإما أن تتغلب الروح تغلباً يُغيّب ضابط العقل، ويهمل حاجات البدن؛ فيتدين تديناً سكونياً؛ فيعيش الإنسان في غيبوبة حقيقية مخاصماً واقعه، محارباً ضد فطرته، مغرراً بغيره، معطياً عدوه فرصة التمدد في الفراغ الذي تركه، ثم استعباده، وإذلاله، والكارثة أن هذا المنحرف يظن أنه أرحم الناس، وأنه أقرب الناس إلى الله!!، وينجيك من هذه الانحرافات الثلاثة أن تتبع منهجاً قويماً يكون مرجعية لك عماده الكتاب والسنة، وأن تتعلم علماً ساقه إليك عالم بالوحي فقيه بالواقع، وأن تتدين تديناً يرتقي بروحك، وأن تشبع شهواتك في إطار ضابط الدين، وحكمة العقل.

(٢) النفوس الثلاث

الناس جميعاً من أصل واحد، فكلهم لآدم، وآدم من تراب، لكنهم ليسوا على شاكلة واحدة، وهذا ما أوضحه الحديث الشريف الذي رواه الترمذي في سننه – وصححه الألباني – مِنْ أَبِي مُوسَى الأَشْعَرِيِّ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: ﴿إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى خَلَقَ آدَمَ مِنْ قَبْضَةٍ قَبَضَهَا مِنْ جَمِيعِ الأَرْضِ، فَجَاءَ بَنُو آدَمَ عَلَى قَدْرِ الأَرْضِ، فَجَاءَ مِنْهُمُ الأَحْمَرُ وَالأَبْيَضُ وَالأَسْوَدُ وَبَيْنَ ذَلِكَ، وَالسَّهْلُ وَالحَزْنُ وَالخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ﴾[1]. فالناس متشابهون من حيث التكوين الأصلي، فالنفس البشرية طين نُفخ فيه الروح، ونتج عن تفاعل هذين

١ – قال الترمذي «هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ»

العنصريـن عقـل فيه حدة الفكر الباحث عـن المصلحة والمرابح، وقلـب يغلب عليه رقة الفؤاد الباحث عن التعاطف والتعايش، فإذا غلبت الروح على البدن ولم تهمله، وتحكمت فيه وأشبعته، وصار البدن تابعاً لها لكنه حاضر معها متفاعل فيها، تزكت النفس وارتقت، ورق القلب واتعظ، واسـتقام العقل وانضبط، واستقر الإنسان على كل حال، فهو شاكر إذا وجد، وصابر إذا فقد، رحيم إذا تمكن، عفو إذا اقتدر. أما إذا غلب البدن على الروح، فانحبست الروح في سجن البدن، وتقيد نور الروح بظلمة البدن، فانطلقت الشهوات بلا لجام، اندسـت النفس، وقسـا القلب، وانحرف العقل، وفجر الإنسـان، وشقيت حياته، فهو آلة تأكل، وتشرب، وتتناسل، ثم يموت.

لكننا – على كل حال – نستطيع أن نقسم النفوس البشرية إلى تقسيمات أساسية:

- نفس حيوانية شهوانية.
- ونفس عقلانية آلية.
- ونفس فطرية سوية.

أمـا النفـس الحيوانية الشـهوانية فهي نفس غلبت عليها شـهوتها، فصاحبها يسـير في الحياة كالحيوان مندفعاً بغريزته، همه الأول إشـباع شـهواته ما استطاع إلى ذلك سبيلاً، لا يرده عن ذلك إلا عجز مانع، أو خوف رادع، أما أسئلة الحلال والحرام فغير مطروحة.

وأما النفس العقلانية الآلية، فهي نفس غلبت عليها مصلحتها الشـخصية، ومربحها المادي، فهو يسـير في حياته كالآلة الميكانيكية المبرمجة على تحصيل ما ينفعها، فهي محكومة بالفعـل، ورد الفعل حكماً فزيائياً صارماً، فلا يتحرك إلا لربح، ولا يبتسـم إلا بثمن، ولا يتراجـع إلا لفرصـة، ولا يترك إلا لطمـع، ولا يعطي إلا انتظاراً لمقابل، ولا ينسـحب إلا

تقاة لخطر، صاحب هذه الشخصية يفعل أي شيء في سبيل مصلحته، فقد يتذلل لقوي ولا تلومه كرامته، وقد يدوس ضعيفاً ولا يطرف له جفن، وقد يقسو على أقرب الناس إليه ولا ينقبض له جبين، ولا يرحم أحداً إلا بقهر الفطرة كرحمته أولاده، أو انكساره أمام شهوة حفرت في نفسه نقطة ضعف في غفلة من صرامة عقله، وقسوة قلبه.

وأما النفس الفطرية السوية فهي نفس متوازنة تشبع جميع مكوناتها بطريقة متوازنة، فالروح تتروح بالتعبد، والبدن يهدأ بالإشباع، والعقل يرتقي بالعلم، والقلب يتقلب بين إقبال وإدبار، وهذه طبيعته، لا يثبت إلا إذا تفأد بعلم يثبته، أو عاطفة تتمكن منه، قال تعالى: ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۚ وَجَآءَكَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ (هود: ١٢٠)، وقال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً ۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۖ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا﴾ (الفرقان: ٣٢). وعند البخاري في صحيحه من حديث عَوْنِ بْنِ أَبِي جُحَيْفَةَ، عَنْ أَبِيهِ، قَالَ: آخَى النَّبِيُّ ﷺ بَيْنَ سَلْمَانَ، وَأَبِي الدَّرْدَاءِ، فَزَارَ سَلْمَانُ أَبَا الدَّرْدَاءِ، فَرَأَى أُمَّ الدَّرْدَاءِ مُتَبَذِّلَةً، فَقَالَ لَهَا: مَا شَأْنُكِ؟ قَالَتْ: أَخُوكَ أَبُو الدَّرْدَاءِ لَيْسَ لَهُ حَاجَةٌ فِي الدُّنْيَا، فَجَاءَ أَبُو الدَّرْدَاءِ فَصَنَعَ لَهُ طَعَامًا، فَقَالَ: كُلْ؟ قَالَ: فَإِنِّي صَائِمٌ، قَالَ: مَا أَنَا بِآكِلٍ حَتَّى تَأْكُلَ، قَالَ: فَأَكَلَ، فَلَمَّا كَانَ اللَّيْلُ ذَهَبَ أَبُو الدَّرْدَاءِ يَقُومُ، قَالَ: نَمْ، فَنَامَ، ثُمَّ ذَهَبَ يَقُومُ فَقَالَ: نَمْ، فَلَمَّا كَانَ مِنْ آخِرِ اللَّيْلِ قَالَ: سَلْمَانُ قُمِ الآنَ، فَصَلَّيَا فَقَالَ لَهُ سَلْمَانُ: إِنَّ لِرَبِّكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وَلِنَفْسِكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وَلِأَهْلِكَ عَلَيْكَ حَقًّا، فَأَعْطِ كُلَّ ذِي حَقٍّ حَقَّهُ، فَأَتَى النَّبِيَّ ﷺ، فَذَكَرَ ذَلِكَ لَهُ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «صَدَقَ سَلْمَانُ»[1]. وروى مسلم في صحيحه مِنْ حديث حَنْظَلَةَ الْأُسَيِّدِيِّ، قَالَ: - وَكَانَ مِنْ كُتَّابِ رَسُولِ اللهِ ﷺ - قَالَ: لَقِيَنِي أَبُو بَكْرٍ، فَقَالَ: كَيْفَ أَنْتَ؟ يَا حَنْظَلَةُ قَالَ: قُلْتُ: نَافَقَ حَنْظَلَةُ، قَالَ: سُبْحَانَ اللهِ مَا تَقُولُ؟ قَالَ: قُلْتُ: نَكُونُ عِنْدَ رَسُولِ اللهِ ﷺ، يُذَكِّرُنَا بِالنَّارِ

١ - صحيح البخاري (٣/ ٨٣) رقم (٨٦٩١).

وَالْجَنَّةِ، حَتَّى كَأَنَّا رَأْيُ عَيْنٍ، فَإِذَا خَرَجْنَا مِنْ عِنْدِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، عَافَسْنَا الْأَزْوَاجَ وَالْأَوْلَادَ وَالضَّيْعَاتِ، فَنَسِينَا كَثِيرًا، قَالَ أَبُو بَكْرٍ: فَوَاللهِ إِنَّا لَنَلْقَى مِثْلَ هَذَا، فَانْطَلَقْتُ أَنَا وَأَبُو بَكْرٍ، حَتَّى دَخَلْنَا عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ، قُلْتُ: نَافَقَ حَنْظَلَةُ، يَا رَسُولَ اللهِ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ «وَمَا ذَاكَ؟» قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ نَكُونُ عِنْدَكَ، تُذَكِّرُنَا بِالنَّارِ وَالْجَنَّةِ، حَتَّى كَأَنَّا رَأْيُ عَيْنٍ، فَإِذَا خَرَجْنَا مِنْ عِنْدِكَ، عَافَسْنَا الْأَزْوَاجَ وَالْأَوْلَادَ وَالضَّيْعَاتِ، نَسِينَا كَثِيرًا فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِنْ لَوْ تَدُومُونَ عَلَى مَا تَكُونُونَ عِنْدِي، وَفِي الذِّكْرِ، لَصَافَحَتْكُمُ الْمَلَائِكَةُ عَلَى فُرُشِكُمْ وَفِي طُرُقِكُمْ، وَلَكِنْ يَا حَنْظَلَةُ سَاعَةً وَسَاعَةً» ثَلَاثَ مَرَّاتٍ[1].

(٣) أنماط الشخصية

ثم إن الناس مختلفون من حيث التوجه، والأخلاق، فمنهم من اغتر، وطغى حتى قال: ﴿أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ﴾ (البقرة: ٢٥٨)، ومنهم من أسلم نفسه وأمره كله لله فقال: ﴿أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ (البقرة: ١٣١)، وما بين هذين النمطين المتباعدين تتأرجح أنماط متنوعة أخذت من النمطين وخلطت بينهما بنسب متفاوتة، فهي تقترب من أحد الطرفين أو تبتعد، وأنا هنا لا أستقصي بقدر ما أعرض ما يؤسس للفكرة، مع الإشارة إلى أن النفوس البشرية لا تُقسم تقسيماً رياضياً صارماً، فالنفس الواحدة قد تجمع بين أوصاف متعددة، فإذا غلب عليها وصف معين عُرفت به، وإليك بعض هذه الأنماط:

١) **الشخصية المتشككة**: وهي شخصية غير مستقرة المعتقد، تعذب نفسها، وترهق من يتعامل معها، ثم إنها تعبر عن تشككها بجدال فارغ لا يثمر منفعة، وإنما يعقد الأمر، ويزيده عسراً، ظهر هذا النمط جلياً في قصة ذبح البقرة التي سميت السورة باسمها، فالقوم في ريبهم يترددون، واليقين بعيد عن قلوبهم، والكفر أقرب إليهم، لكنهم يغطون ذلك كله

١ - صحيح مسلم (٤/ ٦٠١٢) رقم (٠٥٧٢).

بقشرة من الجدل العقيم كحيلة نفسية؛ ليظهروا أنفسهم على غير حقيقتهم، قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا ۖ قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٦٧﴾ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ ۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌۢ بَيْنَ ذَٰلِكَ ۖ فَٱفْعَلُوا۟ مَا تُؤْمَرُونَ ﴿٦٨﴾ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا ۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَآءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ ٱلنَّٰظِرِينَ ﴿٦٩﴾ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ إِنَّ ٱلْبَقَرَ تَشَٰبَهَ عَلَيْنَا ۖ وَإِنَّآ إِن شَآءَ ٱللَّهُ لَمُهْتَدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ تُثِيرُ ٱلْأَرْضَ وَلَا تَسْقِى ٱلْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَّا شِيَةَ فِيهَا ۚ قَالُوا۟ ٱلْـَٰٔنَ جِئْتَ بِٱلْحَقِّ ۚ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٧١﴾ وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَٱدَّٰرَأْتُمْ فِيهَا ۖ وَٱللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٧٢﴾ فَقُلْنَا ٱضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا ۚ كَذَٰلِكَ يُحْىِ ٱللَّهُ ٱلْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٧٣﴾ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِىَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ۚ وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ (البقرة: ٦٧ - ٧٤).

٢) **الشخصية المتكبرة**: وهي شخصية لا تؤمن إلا بما جاء تبعاً لهواها فإذا جاء الحق مخالفاً لهواها كفرت به، فالكبر غمط الناس، وبطر الحق، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَقَفَّيْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ بِٱلرُّسُلِ ۖ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ ۗ أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾ (البقرة: ٨٧).

٣) **الشخصية المادية**: وهي شخصية لا تؤمن إلا بما يقع تحت مدركات الحس، فلابد أن ترى بعينها، أو تلمس بيديها، أو تسمع بأذنها، مثل هذه شخصية شديد التعلق بالدنيا فهي أحرص الناس على حياة، قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا ٱللَّهُ أَوْ تَأْتِينَآ ءَايَةٌ ۗ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّثْلَ قَوْلِهِمْ ۘ تَشَٰبَهَتْ قُلُوبُهُمْ ۗ قَدْ بَيَّنَّا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ (البقرة: ١١٨). وقال تعالى: ﴿وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ ٱلنَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٍ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ ۚ يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِۦ مِنَ ٱلْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ

وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِمَا يَعۡمَلُونَ ﴾ (البقرة: ٩٦).

٤) الشخصية الشهوانية: **وهي الشخصية المشربة بالشهوة، والكفر، وهي شخصية التي تدعي الرغبة في الاقتناع المبني على دليل، فإذا واجهتها بالدليل، تهربت، وظهر معدنها الشهواني، قال تعالى:** ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمۡ كِتَٰبٞ مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٞ لِّمَا مَعَهُمۡ وَكَانُواْ مِن قَبۡلُ يَسۡتَفۡتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِۦۚ فَلَعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ٨٩ بِئۡسَمَا ٱشۡتَرَوۡاْ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمۡ أَن يَكۡفُرُواْ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بَغۡيًا أَن يُنَزِّلَ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦۖ فَبَآءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٖۚ وَلِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٞ مُّهِينٞ ٩٠ وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ ءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ نُؤۡمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيۡنَا وَيَكۡفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ وَهُوَ ٱلۡحَقُّ مُصَدِّقٗا لِّمَا مَعَهُمۡۗ قُلۡ فَلِمَ تَقۡتُلُونَ أَنۢبِيَآءَ ٱللَّهِ مِن قَبۡلُ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ٩١ ۞ وَلَقَدۡ جَآءَكُم مُّوسَىٰ بِٱلۡبَيِّنَٰتِ ثُمَّ ٱتَّخَذۡتُمُ ٱلۡعِجۡلَ مِنۢ بَعۡدِهِۦ وَأَنتُمۡ ظَٰلِمُونَ ٩٢ وَإِذۡ أَخَذۡنَا مِيثَٰقَكُمۡ وَرَفَعۡنَا فَوۡقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُواْ مَآ ءَاتَيۡنَٰكُم بِقُوَّةٖ وَٱسۡمَعُواْۖ قَالُواْ سَمِعۡنَا وَعَصَيۡنَا وَأُشۡرِبُواْ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلۡعِجۡلَ بِكُفۡرِهِمۡۚ قُلۡ بِئۡسَمَا يَأۡمُرُكُم بِهِۦٓ إِيمَٰنُكُمۡ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴾ (البقرة: ٨٩ - ٩٣).

٥) **الشخصية المراوغة:** ومثالها في السورة قصة أصحاب السبت الذين حرم الله عليهم الصيد يوم السبت فتحايلوا على الأمر، قال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ عَلِمۡتُمُ ٱلَّذِينَ ٱعۡتَدَوۡاْ مِنكُمۡ فِي ٱلسَّبۡتِ فَقُلۡنَا لَهُمۡ كُونُواْ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ ٦٥ فَجَعَلۡنَٰهَا نَكَٰلٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهَا وَمَا خَلۡفَهَا وَمَوۡعِظَةٗ لِّلۡمُتَّقِينَ ﴾ (البقرة: ٦٤-٦٥). رُوِيَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّ هَؤُلَاءِ الْقَوْمَ كَانُوا فِي زَمَانِ دَاوُدَ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِأَيْلَةَ عَلَى سَاحِلِ الْبَحْرِ بَيْنَ الْمَدِينَةِ وَالشَّامِ وَهُوَ مَكَانٌ مِنَ الْبَحْرِ يَجْتَمِعُ إِلَيْهِ الْحِيتَانُ مِنْ كُلِّ أَرْضٍ فِي شَهْرٍ مِنَ السَّنَةِ حَتَّى لَا يُرَى الْمَاءُ لِكَثْرَتِهَا وَفِي غَيْرِ ذَلِكَ الشَّهْرِ فِي كُلِّ سَبْتٍ خَاصَّةً وَهِيَ الْقَرْيَةُ الْمَذْكُورَةُ فِي قوله: ﴿وَسۡـَٔلۡهُمۡ عَنِ ٱلۡقَرۡيَةِ ٱلَّتِي كَانَتۡ حَاضِرَةَ ٱلۡبَحۡرِ إِذۡ يَعۡدُونَ فِي ٱلسَّبۡتِ ﴾ (الأعراف: ١٦٣)، فَحَفَرُوا حِيَاضًا عِنْدَ الْبَحْرِ وَشَرَّعُوا إِلَيْهَا الْجَدَاوِلَ فَكَانَتِ

الْحِيتَانُ تَدْخُلُهَا فَيَصْطَادُونَهَا يَوْمَ الْأَحَدِ فَذَلِكَ الْحَبْسُ فِي الْحِيَاضِ هُوَ اعْتِدَاؤُهُمْ، ثُمَّ إِنَّهُمْ أَخَذُوا السَّمَكَ وَاسْتَغْنَوْا بِذَلِكَ وَهُمْ خَائِفُونَ مِنَ الْعُقُوبَةِ فَلَمَّا طَالَ الْعَهْدُ اسْتَسَنَّ الْأَبْنَاءُ بِسُنَّةِ الْآبَاءِ وَاتَّخَذُوا الْأَمْوَالَ فَمَشَى إِلَيْهِمْ طَوَائِفُ مِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ الَّذِينَ كَرِهُوا الصَّيْدَ يَوْمَ السَّبْتِ وَنَهَوْهُمْ فَلَمْ يَنْتَهُوا وَقَالُوا: نَحْنُ فِي هَذَا الْعَمَلِ مُنْذُ زَمَانٍ فَمَا زَادَنَا اللَّهُ بِهِ إِلَّا خَيْرًا، فَقِيلَ لَهُمْ: لَا تَغْتَرُّوا فَرُبَّمَا نَزَلَ بِكُمُ الْعَذَابُ وَالْهَلَاكُ فَأَصْبَحَ الْقَوْمُ وَهُمْ قِرَدَةٌ خَاسِئُونَ فَمَكَثُوا كَذَلِكَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ثُمَّ هَلَكُوا. لقد أخبر الله تعالى بما عَامَلَ بِهِ أَصْحَابَ السَّبْتِ فَكَأَنَّهُ يَقُولُ لَهُمْ أَمَا تَخَافُونَ أَنْ يَنْزِلَ عَلَيْكُمْ بِسَبَبِ تَمَرُّدِكُمْ مَا نَزَلَ عَلَيْهِمْ مِنَ الْعَذَابِ؟! فَلَا تَغْتَرُّوا بِالْإِمْهَالِ الْمَمْدُودِ لَكُمْ ونظيره قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ ءَامِنُواْ بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُم مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰٓ أَدْبَارِهَآ﴾ (النِّسَاء: ٤٧)[1].

٦) **الشخصية المغرورة**: والغرور هو اندفاع الشخص إلى ما يضره دون أن يدري، هذا النمط أدى به الغرور إلى عبادة الذات، تأمل قوله تعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ لَيْسَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ عَلَىٰ شَيْءٍ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ لَيْسَتِ ٱلْيَهُودُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ ۗ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ ۚ فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ (البقرة: ١١٣)، وقوله تعالى: ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۗ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ (البقرة: ١٢٠)، وقوله تعالى: : ﴿وَلَئِنْ أَتَيْتَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ بِكُلِّ ءَايَةٍ مَّا تَبِعُواْ قِبْلَتَكَ ۚ وَمَآ أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ ۚ وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ ۚ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ (البقرة: ١٤٥).

٧) **الشخصية المتبجحة**: وهي شخصية جمعت بين الكبر، والغباء، والغرور، هذا النمط يدعي أنه يملك من العلم بالدين والدنيا ما يغنيه، ويكفيه، فمن غبائهم يتخيلون

١ - انظر تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير (٣/ ٤٥٠) بتصرف.

أن قلوبهم أوعية للحكمة، وآنية للعلم، لا تحتاج إلى علم أحد، قد غُلفت بغلاف حصين يمسك ما فيها، ويمنع أي جديد من الدخول إليها، قال تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ ۚ بَل لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ﴾ (البقرة: ٨٨). أَخْرَجَ ابْنُ أَبِي شَيْبَةَ وَابْنُ أَبِي الدُّنْيَا فِي كِتَابِ الْإِخْلَاصِ وَابْنُ جَرِيرٍ عَنْ حُذَيْفَةَ قَالَ: الْقُلُوبُ أَرْبَعَةٌ: قَلْبٌ أَغْلَفُ، فَذَلِكَ قَلْبُ الْكَافِرِ، وَقَلْبٌ مُصَفَّحٌ، فَذَلِكَ قَلْبُ الْمُنَافِقِ، وَقَلْبٌ أَجْرَدُ فِيهِ مِثْلُ السِّرَاجِ، فَذَلِكَ قَلْبُ الْمُؤْمِنِ وَقَلْبٌ فِيهِ إِيمَانٌ وَنِفَاقٌ، فَمَثَلُ الْإِيمَانِ كَمَثَلِ شَجَرَةٍ يَمُدُّهَا مَاءٌ طَيِّبٌ وَمَثَلُ الْمُنَافِقِ كَمَثَلِ قُرْحَةٍ يَمُدُّهَا الْقَيْحُ وَالدَّمُ. وَأَخْرَجَ أَحْمَدُ بِسَنَدٍ جَيِّدٍ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «الْقُلُوبُ أَرْبَعَةٌ: قَلْبٌ أَجْرَدُ فِيهِ مِثْلُ السِّرَاجِ يُزْهَى وَقَلْبٌ أَغْلَفُ مَرْبُوطٌ عَلَى غِلَافِهِ وَقَلْبٌ مَنْكُوسٌ وَقَلْبٌ مُصَفَّحٌ. فَأَمَّا الْقَلْبُ الْأَجْرَدُ فَقَلْبُ الْمُؤْمِنِ سِرَاجُهُ فِيهِ نُورُهُ وَأَمَّا الْقَلْبُ الْأَغْلَفُ فَقَلْبُ الْكَافِرِ وَأَمَّا الْقَلْبُ الْمَنْكُوسُ فَقَلْبُ الْمُنَافِقِ عَرَفَ ثُمَّ أَنْكَرَ، وَأَمَّا الْقَلْبُ الْمُصَفَّحُ فَقَلْبٌ فِيهِ إِيمَانٌ وَنِفَاقٌ، فَمَثَلُ الْإِيمَانِ فِيهِ كَمَثَلِ الْبَقْلَةِ يَمُدُّهَا الْمَاءُ الطَّيِّبُ، وَمَثَلُ النِّفَاقِ فِيهِ كَمَثَلِ الْقُرْحَةِ يَمُدُّهَا الْقَيْحُ، فَأَيُّ الْمَادَّتَيْنِ غَلَبَتْ عَلَى الْأُخْرَى غَلَبَتْ عَلَيْهِ» . وَأَخْرَجَ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنْ سَلْمَانَ الْفَارِسِيِّ مِثْلَهُ سَوَاءً، مَوْقُوفًا. وَأَخْرَجَ عَبْدُ الرَّزَّاقِ وَابْنُ جَرِيرٍ عَنْ قَتَادَةَ فِي قَوْلِهِ: فَقَلِيلًا مَا يُؤْمِنُونَ قال: لا يؤمن منهم إلا قليل[1].

٨) **الشخصية المتحمسة بلا رصيد**: وهي شخصية انفاعلية بلا رصيد من الثبات، والتصميم، وعاطفية بلا رصيد من العزم والتفعيل، تهيج مع ضغط الموقف، وتنطفئ عند الفعل والمسئولية، قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلْمَلَإِ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰٓ إِذْ قَالُوا۟ لِنَبِىٍّ لَّهُمُ ٱبْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ أَلَّا تُقَٰتِلُوا۟ ۖ قَالُوا۟ وَمَا لَنَآ أَلَّا نُقَٰتِلَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَٰرِنَا وَأَبْنَآئِنَا ۖ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ تَوَلَّوْا۟ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ﴾ (البقرة: ٢٤٦).

---

١ - فتح القدير للشوكاني (١/ ١٣١).

مفهومنا لكلمة الكتاب

(١) الكتاب منهاج، وميثاق، وعهد.

"الكتاب" بقي أن نحدد مفهومنا لهذه الكلمة، إن الذي نفهمه من مدلول هذه الكلمة أن الكتاب منهاج[١]، وعهد، وميثاق، إنه منهاج يحدد اتجاه السير الصحيح الذي تبذل فيه جهدك، وترهق فيه عملك، لكنك تستقر، وتسعد، أما إذا انحرفتَ عنه خاب سعيك، وانقطعت أنفاسك. ثم إنه عهد، والعهد وصية يجب العمل بها، وقد أوصى الله عباده وعهد إليهم أن يعملوا بما في الكتاب تنظيماً لحياتهم، وحفاظاً عليهم، وإصلاحاً لخللهم. ثم إنه ميثاق، والميثاق عقد موثق، والتوثيق قوة مانعة من الانفراط، وتوضيح لما يجب عمله، ولقد وثق الله شريعته وحياً في كتاب لا ريب فيه، تكفل بحفظه، يهتدي بهديه المتقون، فسورة البقرة – إذن – منهاج، وعهد وميثاق، وهذه الكلمات الثلاث مجموعة في كلمة الكتاب، ومبسوطة في آيات سورة البقرة، فأنت أمام إجمال وتفصيل.

لقد ذُكرت كلمة العهد في سورة البقرة في سياق توطيد التوحيد، وبيان أصناف الناس من الوحي، فمنهم من اهتدى وآمن، ومنهم صادم الشرع بهواه قال تعالى: ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسۡتَحۡيِۦٓ أَن يَضۡرِبَ مَثَلٗا مَّا بَعُوضَةٗ فَمَا فَوۡقَهَاۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَيَعۡلَمُونَ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّهِمۡۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَيَقُولُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلٗاۘ يُضِلُّ بِهِۦ

١ – جاء في مقاييس اللغة (نَهَجَ) النُّونُ وَالْهَاءُ وَالْجِيمُ أَصْلَانِ مُتَبَايِنَانِ: الْأَوَّلُ النَّهْجُ، الطَّرِيقُ. وَنَهَجَ لِي الْأَمْرَ: أَوْضَحَهُ. وَهُوَ مُسْتَقِيمُ الْمِنْهَاجِ. وَالْمَنْهَجُ: الطَّرِيقُ أَيْضًا، وَالْجَمْعُ الْمَنَاهِجُ. وَالْآخَرُ الِانْقِطَاعُ. وَأَتَانَا فُلَانٌ يَنْهَجُ، إِذَا أَتَى مَبْهُورًا مُنْقَطِعَ النَّفَسِ. وَضَرَبْتُ فُلَانًا حَتَّى أَنْهَجَ، أَيْ سَقَطَ. انظر مقاييس اللغة (٥/ ١٦٣).

كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِۦ كَثِيرًا ۚ وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٦﴾ ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴾ (البقرة: ٢٦-٢٧).

أما كلمة الميثاق فوردت في سياق عجيب، إذ تصدرت الآية، ثم جاءت البنود الثلاث الكبرى لهذا الميثاق: الميثاق توطيد التوحيد، وتأسيس الأخلاق، وتأكيد التعبد. إن هذا الترتيب قد حصر الأخلاق بين التوحيد والتعبد؛ ليكون ذلك إعلاناً للجميع أنه لا أخلاق على الحقيقية إلا بتوحيد وتعبد، فالتوحيد شجرة الإسلام، والعبادات هي الماء الذي يغذي ما ذبل منه في قلب العبد، والأخلاق ثمرتها، فمن عرف ربه حقاً وتعبد له صدقاً حسنت أخلاقه حتماً، قال تعالى: ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَقُولُوا۟ لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنكُمْ وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ ﴿٨٣﴾ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَآءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴾ (البقرة: ٨٣-٨٤).

(٢) سبب التسمية.

إذا قررنا تقريرين فهمنا السبب في تسمية سورة البقرة بهذا الاسم، التقرير الأول أن سورة البقرة منهاج إلهي لبناء أمة حقه - عند المؤمنين - سمعنا وأطعنا، والتقرير الثاني أن قصة بقرة بني إسرائيل تعرض موقف قوم صادموا الشرع بالعقل، ومن الغباء مصادمة العقل البشري للأمر الإلهي، وشرف للعقل البشري أن يفكر تحت سقف هذا المنهاج، والظالم من يقول: "الدين تحت سقف العقل"، وفضيحة للعقل إذا ظن أنه قادر على مواجهة المنهاج الإلهي، لأن قصوره سوف يظهر، وضعفه سوف يتضح، وخطؤه

سوف يتكرر، فيعيش الإنسان في سيولة فكرية تستهلك كرامته، وتأكل راحته النفسية وإن عاش واضعاً قدماً على الأرض وأخرى فوق القمر.

إن قصة بقرة بني إسرائيل – وإن لم تكن الكبرى من حيث المساحة – تعرض صداماً بين العقل والوحي، فنبي الله موسى – عليه السلام – يحمل إلى قومه أمراً إلهياً واضحاً مباشراً ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تَذۡبَحُواْ بَقَرَةٗۖ﴾ (البقرة:٦٧)، وعلينا أن نتصور الموقف كأننا فيه حتى تتضح الفكرة، إن حامل الأمر هو نبيهم الذي أخرجهم من قهر فرعون، ورأوا المعجزات على يديه، بداية من انشقاق البحر، وغرق فرعون، وتظليل الغمام، وانفجار الماء من الحجر، كل هذا – وأقل منه – كان كافياً ليقولوا سمعنا وأطعنا، ثم إن الأمر هين جداً: "اذبحوا بقرة!!"، لكنهم صادموا أمر الوحي، بمنطق العقل، فقالوا: "أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا"!!، ثم دخلوا في جدل فارغ، لا يخرج إلا من نفس غبية، وعقل فارغ، وانتهي بهم الأمر إلى تضييق الواسع، ثم إنهم "ذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ"، لكنهم لم يخرجوا من هذا الجدل الفارغ سالمين، وإنما صار حالهم كما قال الله: ﴿ثُمَّ قَسَتۡ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ فَهِيَ كَٱلۡحِجَارَةِ أَوۡ أَشَدُّ قَسۡوَةٗۚ وَإِنَّ مِنَ ٱلۡحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنۡهُ ٱلۡأَنۡهَٰرُۚ وَإِنَّ مِنۡهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخۡرُجُ مِنۡهُ ٱلۡمَآءُۚ وَإِنَّ مِنۡهَا لَمَا يَهۡبِطُ مِنۡ خَشۡيَةِ ٱللَّهِۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ﴾ (البقرة: ٧٤).

والحاصل أن حياة الناس لا تنتظم إلا بكتاب فيه منهاج يضبط حركة حياتهم، ويقاس رقي الأمم برقي الكتاب الذي تنتهج شريعته، وبمدى التزام أفرادها بذلك المنهاج، وإذا كانت الأمم تفخر بقدرتها على وضع الدساتير الضابطة، وبخضوع أفرادها للقوانين الحاكمة، فإن شرف المسلم، وعز أمته في تنفيذ أمر الله، واجتناب نهيه، وتصديق خبره، وأسوأ الناس من جعل نفسه نداً للشرع بدلاً العمل به، وسخر عقله لمصادمة منهاجه بدلاً من الاجتهاد في فهمه.

لقد عرضت سورة البقرة خطة المصادمة التي سارت في خطوات، وتدرجت في مراحل نستطيع تحديدها في أربعة خطوات هي:

١) الجدل وتأخير التسليم للأمر. كما في قصة ذبح البقرة.

٢) اتباع الهوى، والانتقائية في تنفيذ الأمر، التحايل على الأمر كما في قصة أصحاب السبت، ثم العصيان المعلن.

٣) قتل الأنبياء، وهو في حقيقته طمس للوحي، وقتل للمنهج؛ فهم لم يقتلوا الأنبياء لذاتهم، وإنما قتلوهم لأنهم يبلغون رسالة الله لخلقه.

٤) الكفر الصريح.

قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَٰرِهِمْ تَظَٰهَرُونَ عَلَيْهِم بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَٰرَىٰ تُفَٰدُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ ۚ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ۚ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْىٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٨٥﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْءَاخِرَةِ ۖ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٨٦﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَقَفَّيْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ بِٱلرُّسُلِ ۖ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ ۗ أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴿٨٧﴾ وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ ۚ بَل لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾ وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ ۚ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾ بِئْسَمَا ٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بَغْيًا أَن يُنَزِّلَ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ فَبَآءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ ۚ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٩٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا۟ بِمَآ

أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ ۗ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنۢبِيَآءَ ٱللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٩١﴾ ۞ وَلَقَدْ جَآءَكُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿٩٢﴾ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱسْمَعُوا۟ ۖ قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأُشْرِبُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ ۚ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِۦٓ إِيمَٰنُكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ (البقرة: ٨٥-٩٣).

(٣) الختام

ثم جاء ختام السورة قوله تعالى: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ ۚ وَقَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٢٨٥﴾ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ ۗ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ ۖ وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآ ۚ أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ (البقرة: ٢٨٥-٢٨٦)، هذا الختام ربط آخر السورة بأولها، فأولها كتاب لا ريب فيه، وآخرها إيمان بما فيه، وهذا الإيمان هو عمل القلب، وقولهم: "سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا" هذا عمل الجوارح، وإذا اجتمع تصديق القلب، وقول اللسان، وعمل الجوارح، فأنت ولي لله حمل المنهاج قولاً وعملاً، وحق الولي أن ينصره مولاه، فكان آخر الكلام ﴿أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾.

مشاهد القصة

- القرآن يقص.
- بين يدي.
- مشاهد القصة .

– المشهد الأول : الشعب المأزوم يبحث عن حل .

– المشهد الثاني : الخطوة الأولى على طريق الحل .(ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَاتِلْ) .

– المشهد الثالث : نبيهم يأخذ عليهم العهود و المواثيق .

– المشهد الرابع : (أول البلاء) تنصيب الملك و اعتراض بني إسرائيل .

– المشهد الخامس : القائد المؤيد .

– المشهد السادس : البلاء الثاني .

– المشهد السابع : تقييم المواقف على قدر الفهم و الإيمان و اليقين

– المشهد الثامن : بالإيمان و الصبر و اليقين تنقلب الموازين .

القرآن يقص

قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلْمَلَإِ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰٓ إِذْ قَالُوا۟ لِنَبِىٍّ لَّهُمُ ٱبْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ أَلَّا تُقَٰتِلُوا۟ ۖ قَالُوا۟ وَمَا لَنَآ أَلَّا نُقَٰتِلَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَٰرِنَا وَأَبْنَآئِنَا ۖ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ تَوَلَّوْا۟ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٤٦﴾ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا ۚ قَالُوٓا۟ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِٱلْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ ٱلْمَالِ ۚ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِى ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِ ۖ وَٱللَّهُ يُؤْتِى مُلْكَهُۥ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٧﴾ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ءَايَةَ مُلْكِهِۦٓ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ ءَالُ مُوسَىٰ وَءَالُ هَٰرُونَ تَحْمِلُهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٤٨﴾ فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِٱلْجُنُودِ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّى وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُۥ مِنِّىٓ إِلَّا مَنِ ٱغْتَرَفَ غُرْفَةًۢ بِيَدِهِۦ ۚ فَشَرِبُوا۟ مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۗ فَلَمَّا جَاوَزَهُۥ هُوَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ قَالُوا۟ لَا طَاقَةَ لَنَا ٱلْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ ۚ قَالَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ ٱللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٢٤٩﴾ وَلَمَّا بَرَزُوا۟ لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ قَالُوا۟ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٥٠﴾ فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٥١﴾ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ ۚ وَإِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ (البقرة:٢٤٦-٢٥٢).

بين يدي القصة.

إسرائيل كلمة عبرية معناها عبدالله، وهي لقب لنبي الله سيدنا يعقوب – عليه السلام – وبنو إسرائيل هم أبناؤه الاثنا عشر المعروفون بالأسباط[1]، والأسباط في بني إسرائيل كالقبائل في العرب، الكلمتان كلتاهما تطلقان على جماعة من الناس يربطهم الانتساب إلى أب واحد فكما نقول: بنو هاشم وبنو أمية وبنو مخزوم وبنو عبس وبنو عامر. نقول في بني إسرائيل: سبط يوسف – عليه السلام – و سبط بنيامين وسبط يهوذا و سبط لاوي. قال ابن عباس :"الأسباط" بنو يعقوب، كانوا اثني عشر رجلا كل واحد منهم ولد سبطا، أمة من الناس[2].

---

١ – السبط في اللغة هو أحد أولاد الابن أو الابنة لشخص ما، ولكن تغلب على ولد البنت مقابل الحفيد التي تغلب على ولد الابن، وجمعها أسباط.

مصطلح الأسباط في القرآن: هو طوائف بني إسرائيل الاثنا عشر أولاد يعقوب بن إسحاق. قال الله: ﴿ومن قوم موسى أمّةٌ يهدون بالحق وبه يعدلون. وقطّعناهم اثنتي عشرة أسباطاً أمماً﴾.

مصطلح الأسباط في الفقه الإسلامي: يطلق على السبطين الحسن بن علي بن أبي طالب، والحسين بن علي بن أبي طالب.

و جاء في لسان العرب : (٧/ ٠١٣)

السِّبْطُ وَلَدُ الابْنِ وَالابْنَة. وَفِي الْحَدِيث: الحَسَنُ والحُسَينُ سِبْطا رسول اللَّه، ﷺ وَرَضِيَ عَنْهُمَا ، وَمَعْنَاهُ أَي طائفتان وقِطْعتانَ مِنْهُ، وَقِيلَ: الأَسباط خَاصَّةُ الأَولاد، وَقِيلَ: أَولاد الأَولاد، وَقِيلَ: أَولاد الْبَنَات، وَفِي الْحَدِيث أَيضاً: الحسينُ سِبْطٌ مِنَ الأَسْباط أَي أُمَّةٌ مِنَ الأُمم فِي الْخَيْر، فَهُوَ وَاقِعٌ عَلَى الأُمَّة والأُمَّةُ وَاقِعَةٌ عَلَيْه. وَمِنْهُ حَدِيثُ الضِّباب: إِنَّ اللَّه غَضِبَ عَلَى سِبْط مِنْ بَنِي إِسرائيل فَمَسَخَهُمْ دَوابَّ.

والسِّبْطُ مِنَ الْيَهُود: كَالْقَبِيلَة مِنَ الْعَرَب، وَهُمُ الَّذِينَ يَرْجِعُونَ إِلى أَب وَاحِد، سُمِّيَ سِبْطاً لِيُفْرَق بَيْنَ وَلَد إِسماعيل وَوَلَد إِسحاق، وَجَمْعُهُ أَسْباط.

٢ – تفسير الطبري = جامع البيان ت شاكر (٢/ ١٢١) .

تبدأ قصة بني إسرائيل[1] تتضح مع قصة يوسف – عليه السلام – حين استوطن مصر وأصبح عزيزها ووزير ماليتها والشخصية الأقوى فيها ثم استدعى أباه وإخوته فعاشوا جميعاً في مصر وتمر الأيام ويدور الزمان دورته ويتناسل بنو إسرائيل حتى يصبحوا شعباً كبيراً إلا أنهم لم يختلطوا بالمصريين ثم يأتي زمان فرعون و يتسلط على بني إسرائيل و يستعبدهم زمناً طويلاً ويظلون كذلك إلى إن يرسل الله إليهم سيدنا موسى – عليه السلام – فيخرج بهم من مصر و يعبر بهم البحر و يغرق فرعون و ينجو بنو إسرائيل إلى أرض سيناء و فيها يرون من النعيم ما لا يخطر لهم على بال فطعامهم المن و السلوى و شرابهم من اثنتي عشرة عيناً تنفجر من الحجر بضربة من عصا موسى و الغمام يحجب حر الشمس المؤذي عنهم و لا يحرمهم نورها و مع هذه النعم كفروا و عبدوا العجل و أساءوا الأدب مع نبيهم و ربهم حين طلب منهم سيدنا موسى – عليه السلام – أن يدخلوا الأرض المقدسة و يقص القرآن ذلك فيقول : ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنۢبِيَآءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا وَءَاتَىٰكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٠﴾ يَٰقَوْمِ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِى كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِكُمْ فَتَنقَلِبُوا۟ خَٰسِرِينَ ﴿٢١﴾ قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا فَإِنَّا دَٰخِلُونَ ﴿٢٢﴾ قَالَ رَجُلَانِ مِنَ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمَا ٱدْخُلُوا۟ عَلَيْهِمُ ٱلْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَٰلِبُونَ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٣﴾ قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَآ أَبَدًا مَّا دَامُوا۟ فِيهَا ۖ فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ ﴿٢٤﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى لَآ أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِى وَأَخِى ۖ فَٱفْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٥﴾ قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً ۛ يَتِيهُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ۗ فَلَا تَأْسَ

١ – وَإِسْرَائِيلُ لَقَبُ يَعْقُوبَ بْنِ إِسْحَاقَ بْنِ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ مَعْنَاهُ عَبْدُ اللَّهِ، لِأَنَّ إِسْرَا بِمَعْنَى عَبْدٍ وإيل اسْمُ اللَّهِ . انظر التحرير والتنوير (١/ ٥٥٤) و تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير (٣/ ٤٧٤) . و تفسير الطبري = جامع البيان ت شاكر (١/ ٣٥٥) .

عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾ (المائدة: ٢٠-٦٢).

عـاش بنـو إسرائيل في أرض التيه أربعين سـنة وخـلال هذه الأربعـين مات هارون ثم مات موسـى، ثم عهد موسـى بأمر النبوة من بعده إلى يوشـع بن نون فتاه المذكور في سـورة الكهف و كان لبني إسرائيل في عهد يوشـع بن نون دولة عظيمة ثم دالت دولتهم و ضعفوا و ذلوا .

وخـلال سـنين الذل الطويلة كان العماليق[1] يحاربون بنـي إسرائيل ويتعرضون لهم ، فكان الإنهاك والقتل في بني إسرائيل أكثر، فلما شعر بنو إسرائيل بالمهانة لجئوا إلى نبي لهم أن يبعـث الله لهـم ملكاً يقودهم؛ لأن الناس لا يمكن أن يجاهدوا أو يحاربوا أو يسوسـوا أمرهم بدون شـخص يأتمرون به، فهذا أمر خلاف العقل و من هنا بداية قصة طالوت و جالوت .

- **المشهد الأول: الشعب المأزوم يبحث عن حل.**

ضاق بنو إسرائيل بحياة الذل التي يعيشـونها فقد سـلبهم العدو أموالهم و أخرجهم من ديارهم و أسر أبناءهم و سـبى نسـاءهم واستولى على التابوت الذي كان بنو إسرائيل يتحصنون به في حروبهم، تبركا بما فيه من آثار موسـى وهارون – عليهما السـلام – فماذا يبقـى للإنسـان بعـد ذلك لكي يثـور؟! إن شـيئاً واحداً من ذلـك يكون كافيـاً لأن يثور الإنسان على عدوه مهما كان الفارق كبيراً في موازين القوى.

١ – العماليق والعمالقة: قوم من ولد عمليق ابن لاوذ بن إرم بن سام بن نوح عليه السلام، وهم أمم تفرقوا في البلاد. و منهم قوم سكنوا فلسطين قديماً و هم المقصودون في قصتنا .

• **المشهد الثاني: الخطوة الأولى على طريق الحل .**

﴿ٱبۡعَثۡ لَنَا مَلِكٗا نُّقَٰتِلۡ﴾ (البقرة:٢٤٦).

يتوجه الملأ الأشراف وأهل الرأي الكبراء من بني إسرائيل إلى نبيهم يطلبون منه أن ينصب لهم ملكاً يكون رأساً لهم ينظم حركتهم و يقودهم في جهادهم ضد عدوهم إذا لا قيمة لحركة جماعية بغير نظام يجمع شتات الأفراد لتثمر حركتهم فلابد للجماعة الناجحة من رأس قائدة ينتهي الأمر إليها فتتحد كلمتهم ولا يفرقهم الاختلاف .

وقد أصاب الملأ من بني إسرائيل عندما توجهوا إلى نبيهم فهم من خلال تجاربهم السابقة وتاريخهم الطويل بداية من سيدنا موسى – عليه السلام – وانتهاء بوضعهم القبيح الذي يعيشونه الآن قد علموا أنه لا فلاح لهم ولن تقوم لهم دولة ولا تقوى لهم أمة إلا بالسير على منهاج النبوة وهذا فهم يليق بملأ يستحقون أن نسميهم نخبة وأن نلقبهم بأهل الحل والعقد.

• **المشهد الثالث: نبيهم يأخذ عليهم العهود و المواثيق .**

للإنسان سوابق تحكم عليه و من جُرّب عليه شيء عُرف به هذه أصول في فقه التعامل مع الناس و نبيهم بما لديه من فهم ثاقب وعلم سابق وخبرة بسلوك قومه وتاريخهم يعلم أن الثبات فيهم شيء نادر و أنهم سريعو التقلب وقلما يثبتون في الشدائد وما حدث من بني إسرائيل مع سيد أنبياء بني إسرائيل موسى – عليه السلام – ليس بمجهول ولا خاف على مثله وهو النبي يأتيه الوحي من السماء حين قالوا له وهم حديثو عهد بنعمة الله عليه حين أهلك عدوهم و نجاهم وآتاهم ما لم يؤت أحداً من العالمين و مع ذلك وجدنا الجيل الذي شهد هلاك فرعون ورأى النعمة في أرض سيناء ماء يتفجر من الحجر

و غماماً يظللهم يحجب عنهم حر الشمس ومناً وسلوى ومع ذلك عبدوا العجل وقالوا لموسى – عليه السلام – : " اذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَا هُنَا قَاعِدُونَ " المائدة ٢٤ .

ولأن نبيهم يعلم تاريخهم القبيح وطبيعتهم المائعة فقال لهم: "هَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا" (البقرة:٢٤٦). فكان ردهم: وأي شيءٍ يمنعنا من أن نقاتل في سبيل الله، ويصرفنا عنه ، فقد طغى علينا جالوت وأخرجنا من ديارنا، واستباح أبناءَنا ونساءَنا، وهذه حالٌ تتطلب منا الجهاد، الذي تركناه طلبًا للعافية والسلامة وها نحن قد فقدناهما، فاسأل ربك ما طلبناه منك!

- **المشهد الرابع : (أول البلاء) تنصيب الملك و اعتراض بني إسرائيل .**

استجاب النبي – عليه السلام – لطلبهم و نصب لهم ملكاً و قال كما قص القرآن : ﴿ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا ۚ قَالُوٓا۟ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِٱلْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ ٱلْمَالِ ﴾(البقرة:٢٤٧).

واستبعدوا جداً أن يكون هو ملكاً عليهم قال المفسرون وسبب هذا الاستبعاد أن النبوة كانت مخصوصة بسبط معين من أسباط[1] بني إسرائيل وهو سبط لاوى بن يعقوب ومنه موسى وهارون وسبط المملكة سبط يهوذا ومنه داود وسليمان وأن طالوت ما كان من أحد هذين السبطين بل كان من ولد بنيامين فلهذا السبب أنكروا كونه ملكاً لهم وزعموا أنهم أحق بالملك منه ثم أنهم أكدوا هذه الشبهة بشبهة أخرى وهي قولهم ولم يؤت سعة من المال وذلك إشارة إلى أنه فقير واختلفوا فقال وهب كان دباغاً وقال

١ – الأَسْبَاطِ وهم ولد الولد والأَسْبَاطِ من بني إسرائيل كالقبائل من العرب . انظر مختار الصحاح (ص: ٦٢٣) .

السدي كان مكارياً وقال آخرون كان سقاء[1] .

فرد عليهم نبيهم موضحاً أن هذا ليس اختياره و إنما هو اختيار الله لهم فقال : ﴿قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِى ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِ ۖ وَٱللَّهُ يُؤْتِى مُلْكَهُۥ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ (البقرة:٢٤٧). و هذا يدل على أن الإمامة ليست وارثة فالله تعالى أنكر عليهم ما أنكروه من التمليك عليهم من ليس من أهل النبوة ولا الملك و أوضح الله أن الملك مستحق بالعلم والقوة لا بالنسب ودل ذلك أيضا على أنه لا حظ للنسب مع العلم وفضائل النفس وأنها مقدمان عليه لأن الله أخبر أنه اختاره عليهم لعلمه وقوته وإن كانوا أشرف منه نسبا وذكره – تعالى – للجسم ههنا عبارة عن فضل قوته لأن في العادة من كان أعظم جسما فهو أكثر قوة ولم يرد بذلك عظم الجسم بلا قوة لأن ذلك لا حظ له في القتال بل هو وبال على صاحبه إذا لم يكن ذا قوة فاضلة[2] .

• المشهد الخامس : القائد المؤيد .

يبدو أن بني إسرائيل يريدون أن يكون الملك من سبط يهوذا إما لأنهم تعودوا على ذلك و إما لأن منهم أصحاب مصالح ومناصب فأرادوا أن يظل كل واحد منهم في منصبه ، إنهم يرفضون زعامة طالوت لأنهم– في تصورهم – أحق بالملك منه فهم الذين ورثوا الزعامة كابراً عن كابر ولم يكن طالوت من الغنى بحيث يملأ عيونهم! إنها موازينهم الفاسدة يزنون الناس بأنسابه وأموالهم و لو أنصفوا لوزنوهم بدينهم و مواهبهم و أعمالهم .

ويشاء الله تعالى أن يجعل لطالوت كرامة من نوع خاص تكون آية ملكه وعلامة على اصطفاء الله إياه . و لكن يا ترى أي كرامة هذه ؟! إنه التابوت ! و ما التابوت هذا ؟! إنه

١ – انظر مفاتيح الغيب (٦/ ٧٤١) .

٢ – انظر أحكام القرآن للجصاص (٢/ ٧٦١) .

صندوق مقدس له مكانة و حرمة في نفوس بني إسرائيل و ترجع حرمته إلى أنه يحوي شيئاً من آثار موسى و هارون – عليهما السلام – كان بنو إسرائيل يتبركون به و يحملونه في حروبهم و يقدمونه بين أيديهم فيهزمون عدوهم فهم ينصرون ببركته وبما جعل الله فيه من السكينة و الطمأنينة التي يجدها بنو إسرائيل في قلوبهم حين ينظرون إليه فيثقون في نصر الله لهم ، فلما فسقوا و عصوا تغلب عليهم جالوت و هزمهم و سلبهم التابوت و وضعه في معابد الكفر بين الأصنام فشق ذلك على بني إسرائيل و عدوا ذلك من أمارات الخذلان .

قال المفسِّرون: إنَّ البقيَّة المذكورة هي عَصاة موسى ونعليه و بقايا الألواح التي كتبت فيها التوراة و جاءت الملائكة بالتابوت تحمله بين السماء والأرض و بنو إسرائيل ينظرون إليه حتى وضعته عند طالوت فالملائكة جاءت بالتابوت ، تطميناً لهم وتثبيتاً ؛ كي يعلموا أن طالوت مختار من الله تعالى ، فيتابعوهُ ويطيعوهُ .قال تعالى : ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ءَايَةَ مُلْكِهِۦٓ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ ءَالُ مُوسَىٰ وَءَالُ هَٰرُونَ تَحْمِلُهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ (البقرة: ٢٤٨).

- **المشهد السادس : (البلاء الثاني).**

قال تعالى : ﴿فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِٱلْجُنُودِ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّى وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُۥ مِنِّىٓ إِلَّا مَنِ ٱغْتَرَفَ غُرْفَةًۢ[1] بِيَدِهِۦ ۚ فَشَرِبُوا۟ مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ﴾ (البقرة: ٢٤٩).

انطلق الملك طالوت بجنوده متجها إلى عدوهم و لما أوغل في السير و ابتعد عن مساكنهم اشتد العطش بهم أراد أن يختبرهم في امتثال الأمر و قوة العزم و مخالفة النفس

١ – غرفة بيده أي مقدار ملء اليد من المغروف وغرفة بفتح الغين يعني مرة واحدة باليد .

فقال لهم إنكم ستمرون على نهر ، فلا تشربوا منه فمن شرب منه فليس مني و لن يشترك معي في قتال إلا أنه أباح لمن أصابه العطش أن يغترف غرفة بيده تُذهب بعض عطشه .

و انفصل عن الجيش من استسلم لشهوة نفسه فعب من عباً حتى ارتوى و ملأ بطنه. انفصلوا عنه لأنهم لا يصلحون للمهمة الملقاة على عاتقه وعاتقهم . وكان من الحزم ومن الخير أن ينفصل عن الجيش الزاحف من عجز عن مقاومة لا أقول العطش لكن الشبع من الماء ، طردهم القائد الحازم لأنهم بذرة ضعف وخذلان وهزيمة . والجيوش ليست بالعدد الضخم ، ولكن بالقلب الصامد ، والإرادة الجازمة ، والإيمان الثابت المستقيم على الطريق . ودلت هذه التجربة على أن النية وحدها لا تكفي ولا بد من التجربة العملية ، ومواجهة واقع الطريق إلى المعركة قبل الدخول فيها . ودلت كذلك على صلابة عود القائد المختار الذي لم يهزه تخلف الأكثرية من جنده عن التجربة الأولى بل مضى في طريقه .

المقصود من هذا الابتلاء أن يتميز الصّديق عن الزنديق والموافق عن المخالف فلما ذكر الله تعالى أن الذين يكونون أهلاً لهذا القتال هم الذين لا يشربون من هذا النهر وأن كل من شرب منه فإنه لا يكون مأذوناً في هذا القتال وكان في قلبهم نفرة شديدة عن ذلك القتال لا جرم أقدموا على الشرب فتميز الموافق عن المخالف والصديق عن العدو ويروى أن أصحاب طالوت لما هجموا على النهر بعد عطش شديد وقع أكثرهم في النهر وأكثروا الشرب وأطاع قوم قليل منهم أمر الله تعالى فلم يزيدوا على الاغتراف وأما الذين شربوا وخالفوا أمر الله فاسودت شفاههم وغلبهم العطش ولم يرووا وبقوا على شط النهر وجبنوا على لقاء العدو وأما الذين أطاعوا أمر الله تعالى فقوي قلبهم وصح إيمانهم وعبروا النهر سالمين[1] .

١ - تفسير الرازي : مفاتيح الغيب (٦/ ٤٥١) .

• **المشهد السابع : تقييم المواقف على قدر الفهم و الإيمان و اليقين .**

قال تعالى : ﴿فَلَمَّا جَاوَزَهُۥ هُوَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ قَالُوا۟ لَا طَاقَةَ لَنَا ٱلْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ ۚ قَالَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ ٱللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٢٤٩﴾ وَلَمَّا بَرَزُوا۟ لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ قَالُوا۟ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ (البقرة: ٢٤٩-٢٥٠) .

خرج مئات الآلاف من بني إسرائيل للقتال مع طالوت لكن لم يصبر على البلاء منهم و لم يصدق في إيمانه إلا عدد قليل لا يتجاوز سبعة عشر و ثلاثمائة و هو نفس عدد المسلمين في غزوة بدر قال سيدنا البراء ابن عازب - رضي الله عنه - كنا نتحدث أن أصحاب رسول الله صلى الله عليه و سلم كانوا يوم بدر ثلاثمائة وبضعة عشر . على عدة أصحاب طالوت . من جاز معه النهر . وما جاز معه إلا مؤمن[1] .

و يستفاد من هذا الحديث أن كل من جاز النهر مشهود له بالإيمان و قد قال الله: ﴿فَلَمَّا جَاوَزَهُۥ هُوَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ قَالُوا۟ لَا طَاقَةَ لَنَا ٱلْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ ﴾ (البقرة: ٢٤٩)، فهذه شهادة من الله أيضاً لهم بالإيمان و لكن كيف يوصفون بالإيمان ثم يقولون : ﴿لَا طَاقَةَ لَنَا ٱلْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ ﴾ ؟! و يجاب عن هذا من وجهين : الأول أن الذين قالوا ذلك لم يقولوه يأساً و جبناً و إنما قالوه إظهارًا لواقع الحال، ورجاءَ المعونة من الله، وليس نكوصًا وامتناعًا عن القتال . و الجواب الثاني أن المؤمنين ليسوا سواء في درجة الإيمان فالإيمان يزيد و ينقص و على قدر الإيمان و الفهم يكون اليقين . لذلك نجد المؤمنين الذين عبروا النهر لم يحكموا على الموقف الواحد حكماً واحداً فمنهم من قال :

---

١ - انظر سنن ابن ماجه (٢/ ٤٤٩) و قال الشيخ الألباني : صحيح . و صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان قال شعيب الأرنؤوط : إسناده صحيح على شرط الشيخين

﴿لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ﴾ وأفضلهم وخلصاؤهم، الذين يتيقنون أنهم ملاقوا جزاء الله يوم القيامة وأنهم ما خرجوا إلا لله ونصرة لدينه قالوا: ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ (البقرة: ٢٤٩).

• **المشهد الثامن : بالإيمان و الصبر و اليقين تنقلب الموازين .**

قال تعالى : ﴿وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ (البقرة: ٢٥٠).

هذا المشهد هو الأخير من القصة وهو أروع مشاهدها إنه مشهد المدد الإلهي لأهل الصبر على البلاء والافتقار إلى الرب الغني واليقين في نصر الله لأهل الديانة. إنه مدد يعلو فوق حسابات الأرض وتوقعات البشر هذا المدد الذي جاء مكافأة للمؤمنين من لأصحاب اليقين. اليقين الذي جعل الرؤية واضحة صافية والقلوب هادئة مطمئنة والثقة في الله فوق كل مشهد وأعلى من كل شعور .

يبدأ المشهد بخروج المؤمنين الصابرين من أهل الإيمان من النهر لمواجهة جالوت وجنوده وبرز كل فريق للآخر، كل فريق يرى عدوه واضحاً ويعرف نفسه جيداً ولو تخيلنا جالوت وجنوده لرأينا أناساً يفخرون ويسخرون، يفخرون بعددهم و عتادهم ولا يشكون في انتصارهم الثقة تملأ قلوبهم والضحكة ملء أفواههم ويسخرون من عدوهم الضعيف القليل .

و على الجانب الآخر نرى فريق المؤمنين منهم من يقول : " لا طاقة اليوم بجالوت و جنوده " لا يقولون ذلك جبناً ولا نكوصاً وإنما يقولونه اعترافاً بعجزهم البشري وافتقارهم إلى المدد الإلهي فلسان حالهم يقول : يا ربنا لا قدرة لنا ولا حول لنا ولا

قـوة لنـا إلا بك . وهنا ينطق أهـل العلم والإيمان الذين يسـعون في الدنيا وهمهم الآخرة فيقولـون: ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ . ثـم يتوجهـون إلى ربهم بالدعاء قائلـين : ﴿رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ (البقرة: ٢٥٠).

لقـد لَجَأَ قَـوْمُ طَالُـوتَ الْمُؤْمِنُونَ إِلَى اللهِ تَعَـالَى يَدْعُونَهُ بِـأَنْ يُفْرِغَ عَـلَى قُلُوبِهِمُ الصَّبْرَ، وَيُثَبِّـتَ أَقْدَامَهُمْ فِي مَوَاقِعِ الْقِتَالِ بِثَبَاتِ قُلُوبِهِـمْ وَاطْمِئْنَانِهَا بِالْإِيمَانِ وَالثِّقَةِ بِهِ، وَيَنْصُرَهُمْ عَـلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ عَبَدَةِ الْأَوْثَانِ، الَّذِينَ تَعَلَّقَـتْ قُلُوبُهُمْ بِالْأَوْهَامِ وَهَذِهِ الْأُمُورُ الثَّلَاثَةُ بَعْضُهَا مُرَتَّبٌ عَلَى بَعْضٍ بِحَسَبِ الْأَسْبَابِ الْغَالِبَةِ، فَالصَّبْرُ سَبَبٌ لِلثَّبَاتِ الَّذِي هُوَ سَبَبٌ مِنْ أَسْبَابِ النَّصْرِ، وَأَجْدَرُ النَّاسِ بِالصَّبْرِ الْمُؤْمِنُونَ بِاللهِ عَزَّ وَجَلَّ الْغَالِبِ عَلَى أَمْرِهِ[1] .

وبغـير ذكـر تفاصيل يذكر القرآن أن جيش جالوت قد هُزم وأن جالوت قد قُتل وأن الـذي قتلـه هو داود ذلك الفتـى الإسرائيلي الذي لم يرد ذكره في سـياق القصة وإنما ظهر فجـأة وعلى يديـه كان الإنجاز الكبير . قال المفسـرون : "إِنَّ جَالُوتَ جَبَّارُ الْفَلَسْـطِينِيِّينَ طَلَبَ الْبَرَازَ فَلَمْ يَجْرُؤْ أَحَدٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى مُبَارَزَتِهِ حَتَّى إِنَّ طَالُوتَ جَعَلَ لِمَنْ يَقْتُلُهُ أَنْ يُزَوِّجَهُ ابْنَتَهُ، وَيُحَكِّمَهُ فِي مُلْكِهِ، ثُمَّ بَرَزَ لَهُ دَاوُدُ بْنُ يَسَى، وَكَانَ غُلَامًا يَرْعَى الْغَنَمَ، وَلَمْ يَقْبَلْ أَنْ يَلْبَسَ دِرْعًا وَلَا أَنْ يَحْمِلَ سِلَاحًا، بَلْ حَمَلَ مِقْلَاعَهُ وَحِجَارَتَهُ، فَسَخِرَ مِنْهُ جَالُوتُ وَاحْتَمَـى عَلَيْـهِ إِذَا لَمْ يَسْـتَعِدَّ لَهُ، وَقَـالَ : هَلْ أَنَا كَلْبٌ فَتَخْـرُجُ إِلَيَّ بِالْمِقْـلَاعِ ؟ فَرَمَاهُ دَاوُدُ بِمِقْلَاعِهِ فَأَصَابَ الْحَجَرُ رَأْسَـهُ فَصَرَعَهُ فَدَنَا مِنْهُ فَاحْتَزَّ رَأْسَـهُ، وَجَاءَ بِهِ فَأَلْقَاهُ إِلَى طَالُوتَ فَعُرِفَ دَاوُدُ، وَكَانَ لَهُ الشَّأْنُ الَّذِي وَرِثَ بِهِ مُلْكَ إِسْرَائِيلَ"، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُ﴾ (البقرة:٢٥١)[2].

---

١ – تفسير المنار (٢/ ٩٨٣) .

٢ – السابق (٢/ ٩٨٣) .

الدخول إلى فكر جديد و عصر جديد وبناء دولة قوية

قال تعالى : ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَإِ مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ مِن بَعْدِ مُوسَى إِذْ قَالُوا لِنَبِيٍّ لَّهُمُ ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ۖ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا ۖ قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ .....﴾ (البقرة:٢٤٦).

نلمح في هذا الجزء من الآية أربعة أسس لا تستغني عنها أمة تريد أن تدخل عصراً جديداً، وتبني دولة قوية، هذه الأسس لابد من دراستها لمعرفة خصائصها، والوقوف عندها بتأنٍ مقصود هي:

- الأساس الأول : الملأ وهم قاطرة المجتمع ومرشدوه.

- الأساس الثاني : النبي وهو رمز المنهج، والمنهج القويم، روح الأمة، وسر بقائها، يضبط الفكر، ويوجه الحركة.

- الأساس الثالث : الشعب وهو جسد الأمة، وهو في قصتنا بنو إسرائيل.

- الأساس الربع : القيادة وهو الملك، وهو للشعب كالرأس للجسد.

وسوف يكون لنا وقفة مع كل واحد من الأسس الأربعة إن شاء الله، لكن نجيب أولاً عن السؤال الذي طرحناه كيف يدخل أي شعب عصراً جديداً ؟!.

بداية لابد أن نوضح ونقرر أن كثيراً من الناس يظنون أن العصر الجديد مرتبط بتاريخ محدد، أو زمن معين، أو حدث مبهر، أو شخص مؤثر، وهذا خطأ فادح؛ لأن الشعوب لا تدخل عصراً جديداً إلا بفكر جديد يسود بين الناس تحمله عقولهم وتعتقده قلوبهم ويدافعون عنه ويتحمسون لنشره ويغير من نمط حياتهم على جميع المستويات أخلاقياً واجتماعياً وسياسياً واقتصادياً وفي طريقة التعامل مع الناس وكل هذه التغيرات مرهونة

بتغير المنظومة الفكرية المركوزة في عقول الناس فلا يغير الإنسان من نمط حياته وطبيعة حركته وطريقة تناوله للأمور والتفكير فيها وفهمه لما يدور حوله إلا بفكر جديد .

والسؤال الكبير الذي يطرح نفسه: من أين نأتي بهذا الفكر الجديد؟! وكيف نغرسه في عقول الناس؟! و للإجابة أقول: العصر الجديد يستلزم نخبة تفرز فكراً جديداً مستنداً إلى مرجعية، ونحن – المسلمين – مرجعيتنا الكتاب والسنة، ولابد من شعب ينتصر لهذا الفكر، وقائد يحمل رايته فلا تدخل أي أمة عصراً جديداً إلا بأن يسود فيها فكر جديد، يفرز هذا الفكر ويحمله إلى الناس نخبة تجمع بين الفهم والإخلاص والهمة، ويُقاس الفهم بدقة الكلام، ويُعرف الإخلاص بقدر التضحية، ونستدل على الهمة بقدر الحركة.

هذا الفكر الجديد لا يصنع عصراً جديداً إلا إذا حمله شعب مقتنع به، ويتحمس له، ويدافع عنه ويعمل إنفاذه، وتفعيله، ويضحي لأجله ولن يفعل الشعب ذلك إلا إذا كان الفكر الجديد يحقق مصلحته، ويدفع حياته إلى أعلى، بإزالة الوضع القائم، والتأسيس للوضع القادم، فإذا ما ائتلف الفكر الجديد مع الشعب الفاهم في رقابة النخبة الواعية المأمونة أفرزوا جميعاً قائداً يعبر عنهم، ويحترق من أجلهم؛ فيظهر عصر جديد، وفي تاريخ الحضارات، والشعوب خير شاهد.

وكي يستقيم فهمنا لابد أن نحرر مصطلحاتنا[1] التي ورد ذكرها في الفقرات السابقة، ومصطلحات[2] سوف تقابلنا في مسيرة البحث:

١ . العقيدة: العقيدة هي كل ما علمه العقل تحقيقاً، وانعقد عليه القلب تصديقاً، ثم

١ – هذه المصطلحات شرحتها بتوسع وإضافات في كتابي: المأمون بن هارون الرشيد، والجزء الثاني من كتابي الأسماء الحسنى.

٢ – هذه المصطلحات هي صياغة المؤلف وتصوره.

صار في النفس يقيناً يظهر أثره في التفكير، والسلوك.

٢. المرجعية: هي نقطة الثبات العقدي التي تحدد مجال الفكر، وهي المعيار الذي نحدد به مدى قبول، أو رفض ما توصل المفكر إليه.

٣. الفكر: هو إعمال العقل في الواقع بعلم ومرجعية.

٤. العقل: هو مجموع القوى الإدراكية التي تتمكن بطبيعة تكوينها من تلقي ما تستقبله الحواس والربط بينها، وتحليلها، ثم صياغة ذلك في كلمات معبرة تنقل المعنى إلى غيره، قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَخۡرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَۙ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ﴾ (النحل: ٧٨).

٥. القيم الحضارية: هي كل فكرة أفرزتها النخبة، واعتقدها المجتمع؛ فأنتجت فيه طريقة للتعايش المنتظم.

٦. الجيل: الجيل يبدأ بفكرة مركزية يؤمن بها جمع من الناس، تولد قيماً حياتية تصنع واقعاً اجتماعياً في زمان ومكان محددين.

٧. مقياس الفكر الإصلاحي: يقاس الفكر الإصلاحي بمقياسين:

• المقياس الأول أن تتفق الفكرة الإصلاحية مع الفطرة الإنسانية بحيث لا تتصادم مع الحتمية الجينية للإنسان التي هي التكوين الجسدي والتركيب الفطري اللذان يميزان الإنسان عن غيره من المخلوقات؛ لأن الفكرة لو صادمت هذين التكوينين فمعنى هذا أنها تصادم ثلاثة أشياء رئيسة[1]:

١ – اعتبار الشذوذ الجنسي استجابة طبيعية لا شذوذ فيه والنظر إليه كحق من حقوق الإنسان وأن ممانعة هذا الاتجاه نقض للحرية وفي المقابل اعتبار النقاب تخلفاً بل جريمة تستحق العقاب.

• تصادم الجسد نفسه، فكيف تستقيم حياة رجل تحول لامرأة؟!، وكيف يستقر بيت تزوج فيه رجل برجل؟! .....

• وتصادم القانون الأخلاقي العام المشترك بين الناس جميعاً. قل لي: كيف تقنع إنساناً سوياً بقتل الضعفاء لأنهم لا ينتجون؟!، وكيف يقبل إنسان سوي أن يترك أبويه المسنين في دار للمسنين؛ لأنه ليس فارغاً لهم؟!، وكيف تقنع أنساناً سوياً بأن ما يمتلكه أصحاب البشرة السوداء حق لأصحاب البشرة البيضاء وأن عليهم أن يصححوا خطأ الطبيعة؟!!، إنهم لا يستطيعون فعل ذلك إلا إذا أفسدوا الفطرة أولاً، ولعلك تجد هذا المعنى في قوله تعالى: ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا﴾ (الإسراء: ٤)، فبنو إسرائيل لم يستطيعوا العلو إلا بالإفساد أولاً، والعبرة أن الخاطئ لن يتمكن من تغليب خطئه إلا بالإفساد أولاً.

• وتصادم كذلك المسلمات العقلية والميول الفطرية التي ولدت مع الإنسان فهو يفهمها ويعمل بها بغير تعلم وينتج عن هذا التصادم سيرٌ في عكس الاتجاه وبالتالي صراع نفسي يقتل بداخل الإنسان سعادته بالأشياء وإن وجد لأفعاله لذة[1] وقتية فإذا سألتني عن الفارق بين اللذة والسعادة قلت لك: إن اللذة شعور وقتي عارض مصدره تحصيل ما تشتهيه النفس أو تستريح لفعله، هذا الشعور يفقد بريقه بالتكرار فيفكر الإنسان في بدائل تجدد لذته وقد يعقبها ندم على الفعل أو زهد فيه أو انكسار بسببه، أما السعادة فشعور بارتياح النفس مصدره رضا الإنسان عن فعله المتفق مع إيمانه المنسجم مع فطرته ومهما تكرر الفعل فالشعور الجميل موجود والسعادة قد يجدها الإنسان في العطاء كما

١ – اللذة شعور وقتي عارض مصدره تحصيل ما تشتهيه النفس قد يكون حراماً وقد يكون حلالاً أما السعادة فشعور بالارتياح مصدره رضا الإنسان عن فعله المنسجم مع فطرته وقناعاته وقد يجدها الإنسان في العطاء كما يجده في الأخذ ويجدها في التضحية كما يجدها في التملك.

يجدها في الأخذ وقد يجدها في التضحية كما يجدها في التملك.

• والمقياس الثاني أن ترتقي الفكرة الإصلاحية بحياة الإنسان إلى أعلى فكل إصلاح لا يستهدف ترقي الإنسان ترقياً ينسجم مع فطرته، أو بتعبير آخر ينسجم مع حتميته الجينية، فليس إصلاحاً.

انظر إلى حال العرب قبل الإسلام تستطيع أن تلخصهم في كلمتين: همج رعاع لا نظام لهم ولا دولة ولا خُلق لهم ولا ضابط، إلا بقية قليلة من أناس تمسكوا بمكارم الأخلاق إنما هم حالات فردية غير مؤثرة في مجتمعها، وإنما هي استثناء يؤكد القاعدة فلما جاء الإسلام وانتشرت دعوته لم يغير الأرض ولم يغير أجساد البشر وملامحهم وإنما غير النفوس والقلوب والعقول فالأرض هي الأرض بتضاريسها والناس هم الناس بأجسادهم وملامحهم لكن الإسلام حطم العقائد الفاسدة ووضع في القلوب العقيدة الصحيحة فاستقامت أفكار العقول وانتشرت مكارم الأخلاق وانضبطت حركة الحياة فإذا الإنسان العربي البسيط يصبح سيداً في نفسه وسيداً على العالم يسيطر على أكثر من نصف الكرة الأرضية في أقل من نصف قرن وإذا المواهب تتفجر في شتى مناحي الحياة فهذا هو خالد بن الوليد القائد العربي المحلي وأبو عبيدة بن الجراح وزيد بن حارثة الشاب الصغير ومحمد بن القاسم الفتى الذي لم يتجاوز عامه السابع عشر وغيرهم كثير لا يحصى أصبحوا قيادات سياسية وعسكرية عالمية تخرج من بيئتها الضيقة المحدودة لتفتح العالم وتنشر الحق والعدل وينعم الناس جميعاً في ظل سماحة الإسلام كل ذلك بسرعة لا مثيل لها في التاريخ أدهشت المحب و أذهلت الكاره وهذه قامات علمية تترجم علم الأرض علم فارس والروم والهند فما وجدوا كتاباً إلا وترجموه وفهموه واستوعبوه فكانوا كالأسد الذي هضم خرافاً ثم تضيف علماً واختراعات وابتكارات كانت الأساس الذي بنت عليه أوربا حضارتها العلمية الحديثة.

قس على ذلك كل أمة من الأمم وكل انتقال من مرحلة إلى مرحلة فهذه أروبا لم تخرج من ظلمات العصور الوسطى إلى نهضتها الحديثة سياسياً وعلمياً واقتصادياً إلا بجهد مفكرين[1] مـن أبنائهـا غيروا أفـكار الناس فتغيرت طريقـة التفكير والفهم والحكم على الأشـياء فتغير

١ - عصر النهضة مصطلح يطلق على فترة الانتقال من العصور الوسطى إلى العصور الحديثة وهي القرون ٤١ - ٦١ ويؤرخ لها بسقوط القسطنطينية عام ٣٥٤١م حيث نزح العلماء إلى إيطاليا حاملين معهم تراث اليونان والرومان وما صاحب ذلك من تغير في أسس الحياة الاجتماعية والاقتصادية والدينية و السياسية.
كما يدل مصطلح عصر النهضة على التيارات الثقافية و الفكرية التي بدأت في البلاد الإيطالية في القرن ٤١، حيث بلغت أوج ازدهارها في القرنين ٥١ و ٦١، ومن إيطاليا انتشرت النهضة إلى فرنسا وإسبانيا وألمانيا وهولندا وانكلترا وإلى سائر اوربا.
أزدهر شأن النهضة الإيطالية إذ وجدت لها أنصارا يصرفون عليها المال الوفير، مثل أسرة ميديشي في فلورنسا وسوفرزا في ميلانو والبابوات في روما. بلغت البندقية ذروة عظمتها الثقافية في أواخر القرن ٦١.
من أعظم شخصيات النهضة في المجال الفني ليوناردو دافنشي و مايكل أنجيلو و ميكيافيلي. كان لهذه الحقبة تأثير واسع في الفن والعمارة وتكوين العقل الحديث وعودة واعية للمثل العليا والأنماط الكلاسيكية.
في هذه الفترة تم اكتشاف أراضي وشعوب جديدة حيث أتسمت هذه الفترة بظهور طائفة كبيرة من الرحالة والمستكشفين والملاحين منهم الأمير هنري الملاح و كرستوفر كولومبوس و فاسكو دي كاما.
من أهم علماء عصر النهضة
كوبرنيكوس ٣٤٥١-٣٧٤١ بولندي عالم فلك الارض تدور حول الشمس وحول نفسها
غاليلي ٤٦٥١-٢٤٦١ ايطالي اخترع التلسكوب ،اثبت نظرية كوبرنيكوس
بيكون٦٢٦١-١٦٥١ انجليزي وضع مبادئ التفكير العلمي
ديكارات ٠٦٦١-٦٩٥١ فرنسي فيلسوف ورياضي استعمل مبادئ رياضية لحل مشاكل علمية
كبلر ٠٣٦١-١٧٥١ الماني حدد مواقع وحركات النجوم
نيوتن ٧٢٧١-٢٤٦١ انجليزي وضع قوانين الجاذبية
هارفي ٧٥٦١-٨٧٥١ انجليزي اكتشف الدورة الدموية
و من ادباء عصر النهضة :
دانتي ١٢٣١-٥٦٢١ ايطالي شاعر ومؤلف الكوميديا الالهية
ماكيافيللي ٧٢٥١-٩٦٤١ ايطالي كاتب سياسي مؤلف الامير
سيرفانتيس ٦١٦١-٧٤٥١ اسباني مؤلف دون كيشوت
توماس مور ٥٣٥١-٨٧٤١ انجليزي مؤلف الاوتوبيا
شكسبير ٦١٦١-٤٦٥١ انجليزي شاعر وكاتب مسرحيات

أسلوب الحياة وأنا هنا لا أقيم ما حدث في أروبا و إنما أوصف كما أنني لا أشبه ما حدث لأوروبا بفعل المفكرين بما حدث للعرب بفعل الإسلام و إنما قصدت فقط أن أؤكد أن الدخول إلى عصر جديد يسبقه فكر جديد وإلا فالفرق كبير بين وحي من الله وفكر بشري وبين علمانية جعلت من الإنسان حيواناً مفكراً فأخرجت أفضل ما فيه وهو العقل والإبداع ليخدم أسوأ ما فيه وهي شهواته التي لا ضابط لها ولا ملجم وبين دين يؤكد أن الله كرم الإنسان وسخر الكون له وجعل التشريعات الضابطة حكماً على الشهوات الضاغطة.

والتاريخ يذكر أن هناك دولاً قامت على أفكار مصلحين أو دعاة مخلصين حمل تلامذتهم ومحبوهم أفكارهم مثل دول المرابطين بالمغرب التي قامت على دعوة الشيخ السني والمجاهد الكبير عبدالله بن ياسين[1] رحمه الله ومن بعدها دولة الموحدين التي

---

١ – عبد الله بن ياسين بن مكوك بن سير بن علي الجزولي فقيه مغربي، ومن علماء المذهب المالكي بالقيروان في منتصف القرن الخامس الهجري.

أصله

أصله من قبيلة تمانارت التي تتبع اليوم إقليم طاطا جنوب المغرب وقبيلة جزولة التي ينتمي إليها استوطنت منذ القدم سفوح جبال الأطلس الصغير بجهة سوس جنوب المغرب.

سفره إلى موريتانيا

استعان به يحيى بن إبراهيم الجدالي (شيخ قبيلة جدالة بجنوب موريتانيا) لإصلاح شئون الدبن بين أهل قبيلته (كانوا يحلون الزنا حيث كان الرجل يستحلي زوجة جاره، وانتشر فيهم السرقة وضاعت بينهم الأمانة، وذلك كله رغم كونهم من المسلمين)، فقام الشيخ يحيى بن إبراهيم الجدالي بالذهاب للحج عام ٤٤٠ ه وفي طريق عودته نزل بالقيروان وقابل كبير شيوخ المالكية في ذلك الوقت وهو أبا عمران الفاسي الذي أشار عليه بالشيخ عبد الله بن ياسين الذي وافق على الفور وترك خلفه ماله وأهله، ورحل عن المدينة الساحلية حيث الحضارة ورفاهية العيش متوجها مع الشيخ يحيى بن إبراهيم الجدالي إلى قلب الصحراء الموريتانية القاحلة.

أقام في جداله ٤ سنوات محاولا إصلاح الدين في نفوس الناس ولكن أبى أحد أن يتبعه أو يصلح معه عمله بل تكالب عليه أصحاب المصالح من كبار القبيلة حتى خيروا الشيخ يحيى بن إبراهيم الجدالي بطرده خارج القبيلة أو قتله. خرج الشيخ عبد الله بن ياسين بمفردة إلى الصحراء ولكنة أبى أن بعود إلى القيروان وإنما توجه إلى شمال السنغال حين أقام لنفسه خيمة (وفي اللغة حين تنصب خيمة خارج الحضر تسمى رباط) وجلس يترقب القوافل والفتيان الخارجون للصيد ليحدثهم في الدين. يقال أنه أول من أمن به كانوا خمسه

قامت على دعوة محمد بن تومرت[1]، والاتحاد السوفيتي تلك الامبراطورية الضخمة التي قامت على أفكار ماركس و لينين[2] بالرغم من أنها أفكار فاسدة إلا أنه وجدت من يحملها و يؤسس عليها دولة والأمثلة غير ذلك كثيرة.

من الفتية وقام كل منهم بهداية واحد أو إثنين وبمرور الزمن تكاثر أتباعه حتى بلغوا بعد ٥ أعوام الفان من الشباب وكانوا يضربون لأنفسهم خياما حول خيمة شيخهم فسموا بالمرابطين (منشأ دولة المرابطين)، وعرفوا فيما حولهم بحسن الجوار، و كانوا يعيشون من الصيد. ثم انضم إليهم قبيلة لمتونة (ثاني أكبر قبائل موريتانيا بعد جدالة) وعلى رأسها شيخ القبيلة يحيى بن عمر اللمتوني و كان رجلا صالحا.

وفاته

مع تكاثر المرابطين بدء حدوث مناوشات بينهم وبين القبائل المحيطة انتصر فيها أبو بكر بن عمر اللمتوني خليفة يحيى بن عمر اللمتوني وكان من بينها قبيلة جداله نفسها . وفي عام ١٥٤ ه استشهد الشيخ عبد الله بن ياسين بعد ١١ عاما مرت منذ خروجه من حاضرة القيروان إلى الصحراء القاحلة لإصلاح الدين في القبائل. وبعد أن نجح أيضا في إنشاء دولة إسلامية قوية هي دولة المرابطين التي بسطت نفوذها على كل المغرب العربي بدءا من تونس وحتي الجابون في وسط إفريقيا. واستطاعت هذة الدولة إنقاذ الأندلس من سقوط مبكر ٥٢٠ عاماً.

١ – دعوة ابن تومرت، فقد كان يشوبها اتجاهات فكرية منحرفة، مخالفة لمنهج أهل السنة والجماعة، فقد وافق الروافض في مسألة الإمامة و القول بعصمتهم وكذلك تأثر ابن تومرت بمذهب المعتزلة، في نفي الصفات عن الله سبحانه و بالأشاعرة في تأويل بعض صفات الله سبحانه وتعالى وفي دعوته السرية بين الناس كما عدّه شيخ الإسلام ابن تيمية من "أتباع الجهمية" .

أضاف ابن تومرت إلى تلك الانحرافات، فكرتين فاسدتين، هما :

١ ادّعاؤه العصمة، حتى كان أصحابه يلقبونه ب "المعصوم"، ولكي يؤصّل هذا الادّعاء في نفوس أصحابه، ألف لهم كتابه (أعز ما يطلب).

٢ ادّعاؤه أنه المهدي المنتظر الذي وعد الرسول ﷺ بخروجه ليملأ الدنيا عدلاً، وقد قال في خطبته حينما بايعه أصحابه إماماً للموحدين سنة ٥١٥ه: .

٢ – الشيوعية هي إيديولوجيا اجتماعية وسياسية واقتصادية تهدف إلى تأسيس مجتمع ثوري اشتراكي خالٍ من الطبقات مبني على الملكية المشتركة لوسائل الإنتاج . فالشيوعية نظرية اجتماعية وحركة سياسية ترمي إلى السيطرة على المجتمع ومقدّراته لصالح أفراد المجتمع بالتساوي ولا يمتاز فرد عن آخر بالمزايا التي تعود على المجتمع. وتعتبر الشيوعية (الماركسية) تياراً تاريخياً من التيارات المعاصرة. الأب الروحي للنظرية الشيوعية هو كارل ماركس، ويعتبر فلاديمير لينين من أهم من توغل في النظرية الشيوعية وأسهم في الكتابات والتطبيق فيها

الملأ

١) من هم الملأ ؟

٢) ما تأثير الملأ في المجتمع؟

٣) ما أنواع النخبة من حيث علاقتها بالمجتمع ؟

٤) الملأ بين الماضي و الحاضر .

٥) ظهور النخبة المتغربة .

٦) لا تقوم دولة الدين على أكتاف المغرورين أو الطامعين .

الملأ

الملأ هم أشراف الناس، وصفوتهم، ونخبتهم، والمتميزون منهم، وهم أهل الحل، والعقد في مجتمعهم، سماهم القرآن ملأ؛ لأنهم امتلأوا بأشياء تميزهم عن غيرهم من عوام الناس، فمنهم من امتلأ علماً، ومنهم من امتلأ مكانة، وشرفاً، ومنهم من امتلأ مالاً، ومنهم من امتلأ شهرة، وهؤلاء الملأ يملؤون المكان إذا حضروا، ويملؤون أعين الناس هيبة، واحتراماً. يطلق عليهم في الفقه الإسلامي أهل الحل و، العقد[1]، ويطلق عليهم في واقعنا المعاصر النخبة، وهو المصطلح الذي كثر تداوله إعلامياً في الفترة الأخيرة.

الملأ هم قاطرة المجتمع، والآخذون بيده، ومرشدوه في الطريق، بهم يكون رقي المجتمع، أو انتكاسته، فهم نوره، أو ناره، وهم من سعادته أو شقاوته، لذلك بدأ بهم القرآن عند حديثه عن قصة طالوت، وهي قصة الشعب الذي يريد أن يبني دولة، بدأ القرآن بهم لمحورية دورهم، ولأن الشعوب لا تتحرك إلا بقيادتهم، ولا تتغير إلا بأفكارهم، فهم رأس حربتها.

وأنا أبدأ بما بدأ القرآن به فمن اللازم – ونحن نريد أن ندخل عصراً جديداً – أن يكون لدينا معرفة بهذا المصطلح: على من يطلق؟ وما أصنافهم؟ وما دورهم في حياتنا؟

---

١ – الفقهاء يذكرون أوصافًا عامة لأهل الحل و العقد ويقولون: هي الشروط المعتبرة فيهم وهي:
الأول: العدالة الجامعة لشروطها.
والثاني: العلم الذي يتوصّل إلى معرفة من يستحق الإمامة على الشروط المعتبرة فيها.
والثالث: الرأي والحكمة المؤديان إلى اختيار من هو للأمة أصلح وبتدبير المصالح أقوم ...
أما علاقة أهل العقد والحل بالأمَّة : فهي علاقة النائب والوكيل، فهم يباشرون انتخاب رئيس الدولة الخليفة نيابةً عن الأمة ومن ثَمَّ يعتبر انتخابهم ملزمًا للأمة.

هذه النخب قد تكون رائدة خير في أمتها، وقد تكون مجلاب شر على كل من عرفها؛ لذلك فقد وردت كلمة الملأ في القرآن في سياقات تذمها، وهذا هو الغالب، كما وردت في سياق يمدحها، وهذا قليل، فمن سياقات الذم أن تجد النخبة في مصادمة الوحي، كما في قوله تعالى: ﴿ ۞ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۗ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٦٦﴾ قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَٰكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ (الأعراف: ٦٥-٦٧)، وقد تجد نخبة تساند حاكماً طاغياً حفاظاً على بيئة الظلم التي يستفيدون منها، كما في قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ ۚ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ ﴾ (الأعراف: ١٢٧)، وقوله تعالى: ﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَلْ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَىٰ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٣٨﴾ وَاسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ ﴿٣٩﴾ فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ ۖ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ ﴾ (القصص: ٣٨-٤٠)، وقد تجد نخبة تضلل شعبها متحصنة بمكانها من الحاكم أو بقدرتها على التأثير في فاقدي الوعي، كما في قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۖ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا هَٰذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُوا بِهِ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبِّ انْصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ ﴾ (المؤمنون: ٢٣-٢٦)، وقد تجد نخبة مأمونة تجر شعبها إلى حيث مصلحته، ورقيه، وتحضره، كما في قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَإِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَىٰ إِذْ قَالُوا لِنَبِيٍّ لَهُمُ ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ (البقرة: ٢٤٦)، وقد تكون النخبة بطانة خير لحاكمها كما في قوله

تعالى: ﴿قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ إِنِّىٓ أُلْقِىَ إِلَىَّ كِتَٰبٌ كَرِيمٌ ﴿٢٩﴾ إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾ أَلَّا تَعْلُوا۟ عَلَىَّ وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَفْتُونِى فِىٓ أَمْرِى مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ ﴿٣٢﴾ قَالُوا۟ نَحْنُ أُو۟لُوا۟ قُوَّةٍ وَأُو۟لُوا۟ بَأْسٍ شَدِيدٍ وَٱلْأَمْرُ إِلَيْكِ فَٱنظُرِى مَاذَا تَأْمُرِينَ ﴿٣٣﴾ قَالَتْ إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا۟ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوٓا۟ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً ۖ وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٣٤﴾ وَإِنِّى مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌۢ بِمَ يَرْجِعُ ٱلْمُرْسَلُونَ﴾ (النمل: ٢٩-٣٥)، فالملأ هنا - كما يبدو من السياق - ساسة، وقادة عسكريين، ولهم مكانتهم وشوكتهم، لكنهم لم يجعلوا أنفسهم فوق زعامتهم السياسية، بل قالوا رأيهم، واشتركوا جميعاً في صنع القرار، ثم تركوا لها الحسم النهائي.

وبناءً على ما سبق يمكن أن نقسم النخبة من حيث علاقتها بالحاكم والمجتمع إلى أربعة أنواع:

١) **نخبة ببغائية مصنوعة**: وهي نخبة يصنعها الحاكم تنطق بلسانه، وتتحرك بأمره، وتدعو لما يريد، إنها تعطس إذا أصيب بالبرد، وتمسح أنفها إذا سال مخاطه، فهي تمثل غيرها على كل حال، وهي نخبة زائفة ظاهرها لامع بحكم ما يُغدق عليه من مال، وباطنها مظلم لثقل ما تحمل من أوزار، وهي نخبة فارغة من كل احترام، وهذه نخبة كاذبة خاطئة مشئومة.

٢) **نخبة مالية**: وهي نخبة يصنعها المال، ولا تمتلك شيئاً غيره، فهم ذوو كلمة مسموعة في فئة من الناس بحكم نفوذ أموالهم، وهذه نخبة لا تقوم بمجتمع؛ لأن المال وحده لا يصنع وعياً، ولا يغير واقعاً إلا إذا كان مصحوباً بوعي، ومدفوعاً بهم.

٣) **ونخبة إعلامية**: وهي نخبة فارغة يصنعها الإعلام صنعاً، ويفرضها على الناس فرضاً حتى يتعود البسطاء على رؤيتهم ورأيهم، وهذه نخبة تضر ولا تنفع.

٤) **نخبة مأمونة**: وهي نخبة يفرزها المجتمع فهي خلاصة معدنه فكراً، وشعوراً، وهماً، وهدفاً، وهذه نخبة الخير، إنها نخبة تشعر بشعور شعبها، وتهتم بهمومه، وتعيش

آلامه، وآماله، وتفهم قضيته، وتعرف عيبه وميزته، تفرح لسعادته، ولا تحزن إن بخسها حقها، وأهمل قدرها، وقسا عليها تتقرب إلى الله بإسعاده خدمته، ولا تريد منه جزاءً، ولا شكوراً، وإنما الله مقصده والجنة المكافأة التي يتمنى.

هذه النخبة لها دوران أساسيان: الأول توعية الشعب، وتبصرته. والثاني أن تكون همزة وصل بينه وبين الحاكم بداية من اختياره ثم رفع حاجات الناس إليه، وانتهاءً بمراقبته، ومساعدته، وتقويمه، مثل هذه النخبة الخير كله فيها.

ولعل هذه النخبة من أهل الحديث الذي رواه البخاري ومسلم في صحيحيهما من حديث تَمِيم الدَّارِيِّ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ، قَالَ: «الدِّينُ النَّصِيحَةُ» قُلْنَا: لِمَنْ؟ قَالَ: «لِلَّهِ وَلِكِتَابِهِ وَلِرَسُولِهِ وَلِأَئِمَّةِ الْمُسْلِمِينَ وَعَامَّتِهِمْ». قال العلماء: النصيحة لله إخلاص الاعتقاد في الوحدانية، ووصفه بصفات الألوهية، وتنزيهه عن النقائص والرغبة في محابّه والبعد من مساخطه. والنصيحة لرسوله: التصديق بنبوته، والتزام طاعته في أمره ونهيه، وموالاة من والاه ومعاداة من عاداه، وتوقيره، ومحبته ومحبة آل بيته، وتعظيمه وتعظيم سنته، وإحياؤها بعد موته بالبحث عنها، والتفقه فيها والذب عنها ونشرها والدعاء إليها ، والتخلق بأخلاقه الكريمة ﷺ. وكذا النصح لكتاب الله: قراءته والتفقه فيه ، والذب عنه وتعليمه وإكرامه والتخلق به. والنصح لأئمة المسلمين : ترك الخروج عليهم ، إرشادهم إلى الحق وتنبيههم فيما أغفلوه من أمور المسلمين ، ولزوم طاعتهم والقيام بواجب حقهم. والنصح للعامة : ترك معاداتهم ، وإرشادهم وحب الصالحين منهم ، والدعاء لجميعهم وإرادة الخير لكافتهم[1].

ومن لطيف اللفتات في هذا المقام أن نشير إلى قوله تعالى: ﴿فَلِلَّهِ ٱلْحَمْدُ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَرَبِّ ٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٦﴾ وَلَهُ ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ (الجاثية: ٣٦-

١ - الجامع لأحكام القرآن (٨/ ٧٢٢).

٣٧)، واللطيف في الآية أن أمر الكون لا يستقيم إلى بكبير، وهذا أمر يستوجب الحمد[١]، وكذلك لا يستقيم أمر المجتمعات إلا بكبير له عقله، ووعيه، ورأيه، وإخلاصه لذلك قال ﷺ: "الْبَرَكَةُ مَعَ أَكَابِرِكُمْ"، وأوصى قَيْس بْن عَاصِم السَّعْدِيِّ بنيه فقال: "سَوِّدُوا أَكَابِرَكُمْ، فَإِنَّكُمْ إِذَا سَوَّدْتُمْ أَكَابِرَكُمْ لَمْ يَزَلْ لِأَبِيكُمْ فِيكُمْ خَلِيفَةٌ، وَإِذَا سَوَّدْتُمْ أَصَاغِرَكُمْ هَانَ أَكَابِرُكُمْ عَلَى النَّاسِ، وزهدوا فيكم ....."". لذلك نقرر: إن أقرب الناس تعبداً لله باسميه الكبير، والمتكبر من عرف قدر الكبير، وحافظ عليه، وإن أبعد الناس عن التعبد بهذين الاسمين من حطم رمزاً يقتدي الناس به، أو أبعد كبيراً يلتف الناس حوله أو أهان عزيزاً واستعضفه بغير حق.

إن الكبراء هم نخبة المجتمع، وصفوة الناس، وأهل الحل والعقد فيهم، وهم – كذلك – نظام[٢] أفراد المجتمع، وبغير الكبراء يفقد الأفراد قيماً إضافية لا تتحصل للسائر منفرداً، فكما أن الخيط هو الذي يجمع حبات الجواهر المتناثرة فيكوّن منها عِقْداً ثميناً ذا قيمة فكذلك كبراء الناس هم النظام الذي يجمع الأفراد المتناثرين في طريق واحد، فتظهر قوتهم، وتتخلص حركتهم من الاضطراب المعهود في عوام الناس، ولو أن حبات اللؤلؤ كانت متناثرة لفقدت تلك القيمة الإضافية المكتسبة من انتظامها في نظام واحد فالفرق كبير بين حبة اللؤلؤ وعقد اللؤلؤ، وكذلك الأفراد الأقوياء إذا كانوا فرادى فتأثيرهم موجود لكنه محدود إنه موجود بحكم أصالة القوة فيهم لكنه محدود بحكم تسلط التناثر عليهم فيسهل التلاعب بهم ويتمكن عدوهم من ضرب بعضهم ببعض وتختلف اجتهاداتهم وقناعاتهم بغير منظومة ضابطة فتتصادم حركتهم ويتعادى

---

١ – توسعت في هذا المعاني في الجزء الثاني من كتابي الأسماء الحسنى (قراءة نسقية في الإيمان والحضارة) في شرح اسم الله الكبير والمتكبر، وقد اقتبست ومن أراد المزيد فليرجع إلى كتابي المذكور.

٢ – النَّظْمُ نَظْمُكَ خَرَزاً بَعْضَهُ إلى بعض في نِظام واحد، وهو في كل شيء حتى قيل: ليس لأمرِه نظام، أي لا تستقيم طريقته. معجم العين (٨/ ٥٦١).

أذكياؤهم ويتباغض صغارهم فإذا هم مجرد ألوان باهتة في لوحة القوي يزين بها مناظر قوته فيتشوهون وتسقط مهابتهم ويسهل اصطيادهم والقضاء على مواهبهم وطمس حقوقهم، لذلك جاء الوصية النبوية: «إِذَا كُنْتُمْ ثَلَاثَةً فِي سَفَرٍ فَأَمِّرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدَكُمْ، وَلَا يَتَنَاجَى اثْنَانِ دُونَ صَاحِبِهِما[1]»، فإذا كان الثلاثة يحتاجون إلى أمير ينظم أمرهم فأحوج منهم من زاد على ذلك.

وكما قلنا: النخب هم قاطرة المجتمع، وهم – على قلة عددهم – النواة الصلبة التي تعطي للعدد الكبير فاعليته، فنخبتك المأمونة هي التي تضع يدك على مواطن تميزك، وأماكن خللك، وهي التي تستثمر قوتك، وتوجه حركتك، وتنبهك إلى خطئك، وترشدك إلى علاجه، وهم نظام المجتمع حين يفقد نظامه، وهم قبلته حين تشتد أزمته وتسيطر الحيرة فلا يدري البسطاء أين يذهبون؟! أو ماذا يفعلون؟!، وشعب كبير بغير نخبة تقوده هو شعب لا فاعلية له في غيره وقابل لفاعلية غيره فيه.

لقد استطاع الشعب المصري مقاومة الحملة الفرنسية (١٧٩٨م) بقيادة نخبتيه العلمية الأزهرية والاجتماعية من أصحاب الوجاهة وشيوخ الحرف حين فر المماليك وهم نخبته العسكرية، وحين عجز الأتراك العثمانيون وهم نخبته السياسية، وأي شيء يبقى لشعب بلا جيش ولا رئيس؟! لقد بقي للشعب المصري كبراؤه العظماء من علماء الأزهر وطلابهم، وشيوخ الحرف وأتباعهم، وشيوخ البلاد وعوامهم، فكان لكل شريحة من الناس رأس محترمة جامعة موجهة، ولم يستطع نفس الشعب أن يقاوم الإنجليز حين هُزم جيش عرابي (١٨٨٢م)، تدري لماذا؟! أنت متسرع ومخطئ إذا قلت: "لأن جيش بريطانيا أقوى من جيش فرنسا"، أنت مخطئ؛ لأن الفرق كان شيئاً آخر، إن الفرق كان

١ – قال الهيثمي في مجمع الزوائد ومنبع الفوائد (٥/ ٦٥٢) رقم (٨٠٣٩) رَوَاهُ الطَّبَرَانِيُّ وَرِجَالُهُ رِجَالُ الصَّحِيحِ.

في تلك الجرافة، جرافة المجد الشخصي التي ركبها محمد علي باشا فجرّف بها النخبتين: العلمية والاجتماعية وقضى عليها بالقتل أو النفي أو التشويه، ثم استدار إلى الناس فنزع منهم أسباب قوتهم المعنوية، وهي كبراؤهم، وأسباب قوتهم المادية، وهي سلاحهم، ثم سلط عليه كل أسباب قوته فقضى على رموزهم وشتت جمعهم وأفقرهم واستعبدهم وقتل النخوة والشجاعة في نفوسهم حتى صار القوي مطارداً، وصار المستضعف مهموماً بطعامه وشرابه.

والمتأمل في حال المجتمعات التي تتعرض للفشل المتكرر يرى أن الناس فيها يكونون على ثلاثة أصناف – غالباً –:

١) **الصنف الأول**: التيار المتكيف المترمم، ونقصد به جماعة من الناس يحكم عليها الفشل المتكرر، وضعفها المتأصل، واستعدادها النفسي بأن تتقولب مع الوضع القائم؛ فتصير جزءاً منه، وتعيش مترممة على ما يتساقط من موائد الطغيان، وصانعي الفشل، فإذا تغير الوضع تغيرت معه، وتقولبت، وترممت، وعلى هذا تعيش لا ثبات ولا مبدأ.

٢) **الصنف الثاني**: التيار المتشرنق ونقصد به جماعة من الناس يرفضون الواقع، لكنهم لا يعلنون ذلك ولا يخطون خطوة واحدة نحو تغييره إنهم يتخذون موقفاً انسحابياً انكفائياً فينعزلون عن الناس كأنهم غير موجودين انتظاراً للحظة ينتظرونها.

٣) **الصنف الثالث**: تيار التحدي وهو وتيار يستفزه الفشل المتكرر لردة فعل إيجابية مضادة لحالة الفشل فتخلق حاله من الوعي أساسه مخاطبة عقول الناس لتفكيك طبقات الجهل المتراكم، وتركيب أفكار واعية بحقيقة ما يعيشه الناس، وما يفعله أعداؤهم بهم، وما يُخطط لهم وما هو متوقع في مستقبلهم، ثم إنهم يطرحون الحلول التي تنقل المجتمع من حال إلى حال ومن عصر إلى عصر.

إذن بداية الإصلاح تبدأ من النخب الواعية المأمونة المهمومة، وقد وصفتها بهذه الصفات الثلاث – والوصف يضيق المعنى – لأن أي نخبة لا تجتمع فيها هذه الصفات لن تكون رافعة حقيقية لرقي أمتها؛ لأن شرط الوعي يعني إدراك هذه النخب لطبيعة المشكلة، وأسباب تواجدها، وعوامل استمرارها، والنتائج المترتبة عليها، ثم القدرة على طرح الحلول العملية القابلة للتنفيذ، وشرط الأمانة لأن كثيراً من النخب – على علمهم وذكائهم – قد ينحرفون عن قناعاتهم في لحظة من لحظات الضعف التي تهب كثيراً وبعنف على أجواء المجتمعات الفاشلة فقد ينهزمون أمام شهواتهم، أو فقرهم، أو ضعفهم حين يتهددون بما سيصيبهم، أو يصيب أحبابهم، وشرط الهم لأن فاقد الهم لا عزم له، ولا طاقة، ويبأس مع أول خذلان يتعرض له والوفاء في الشعب المقهور عزيز.

إن النخبة الموصوفة بهذه الأوصاف نخبة قادرة على إنتاج فكر إصلاحي حقيقي وقادرة على بذل الجهد لتفعيل أفكارهم وإخراجها من حال القول إلى حال الفعل ومن فصاحة التنظير إلى فاعلية التحريك.

إن سِيَر الأنبياء والصالحين تشهد لصحة ما نطرحه، فإن الله إذا أراد إصلاح قوم بعث فيهم نبياً منهم يعرف أحوالهم جليها وخفيها، ويعرف الناس: محسنهم، ومسيئهم، هذا النبي يبث دعوته بين الناس فيُواجه من قومه بكل قبيح، ويقاوم بكل وسيلة، وتُضرب حوله دائرة من الشدائد فلا يدخل في دائرة الإيمان به إلا كل مخلص في إيمانه، قوي في عزيمته، واعٍ بما يجب عليه، مهموم بترقية قومه، ثم يموت النبي، ويترك من خلفه تلك النواة الصلبة من هؤلاء الرجال الذين يقودون الناس إلى التغيير، ومع الوقت يزداد الحق وضوحاً، ويزداد أصحابه تماسكاً، وتتسع دائرة المؤمنين به، ويكثر عدد المتحمسين له، وما تعجز ألسنة الدعاة عن إقناع الناس به تثبته غباوة أهل الباطل، وفعالهم السيئة، ومع مرور الأيام تجري سنة الله في أهل الباطل، فيضعفون من الداخل، ثم ينهارون فجأة فكأنهم يموتون انتحاراً.

ثم إن حوادث التاريخ كلها تشهد أن حركات الانتقال الكبرى من عصر إلى عصر قامت على فكر نخب استفزهم الفشل، وأصابهم الهم لحال مجتمعهم؛ فدفعهم ذلك لإعمال العقل؛ فشخصوا المرض، وحددوا السبب ووصفوا العلاج؛ ووضعوا خطة العمل ثم إنهم اصطنعوا أنصاراً مخلصين أقوياء مهمومين قاموا بحق الدعوة لأفكارهم بالجهد اللازم، والتضحية الواجبة والتحرك المطلوب والتخطيط الجيد ثم إنهم وجدوا وسطاً قابلاً يزرعون فيه أفكارهم وغالباً ما يكون الوسط قابلاً بسببين: الأول فشل الوضع القائم والثاني صحة الفكرة الجديدة، مع التنبيه أن الأنبياء والمصلحين الكبار ظهروا في أسوأ المراحل التاريخية التي مر بها التاريخ الإنساني، وهنا كانت قيمتهم، وقد قَالَ ﷺ ذَاتَ يَوْمٍ فِي خُطْبَتِهِ: "أَلَا إِنَّ رَبِّي أَمَرَنِي أَنْ أُعَلِّمَكُمْ مَا جَهِلْتُمْ، مِمَّا عَلَّمَنِي يَوْمِي هَذَا، كُلُّ مَالٍ نَحَلْتُهُ عَبْدًا حَلَالٌ، وَإِنِّي خَلَقْتُ عِبَادِي حُنَفَاءَ كُلَّهُمْ، وَإِنَّهُمْ أَتَتْهُمُ الشَّيَاطِينُ فَاجْتَالَتْهُمْ عَنْ دِينِهِمْ، وَحَرَّمَتْ عَلَيْهِمْ مَا أَحْلَلْتُ لَهُمْ، وَأَمَرَتْهُمْ أَنْ يُشْرِكُوا بِي مَا لَمْ أُنْزِلْ بِهِ سُلْطَانًا، وَإِنَّ اللهَ نَظَرَ إِلَى أَهْلِ الْأَرْضِ، فَمَقَتَهُمْ عَرَبَهُمْ وَعَجَمَهُمْ، إِلَّا بَقَايَا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ، وَقَالَ: إِنَّمَا بَعَثْتُكَ لِأَبْتَلِيَكَ وَأَبْتَلِيَ بِكَ، وَأَنْزَلْتُ عَلَيْكَ كِتَابًا لَا يَغْسِلُهُ الْمَاءُ، تَقْرَؤُهُ نَائِمًا وَيَقْظَانَ.....[1]".

ثم إليك نموذجين فاشلين – على غير ما اشتهر بين الناس – : محمد بن أبي عامر الملقب بالحاجب المنصور الذي قيل عنه ما يشبه الأساطير في ذكائه وعدله وشجاعته ومحمد علي باشا الحاكم الذكي الملقب بمؤسس مصر الحديثة ولأنني أخالف المشهور عن الرجلين – فهما عندي من أسوأ الحكام – فسوف أؤسس للفكرة بثلاث مقدمات نبني عليها تحليلنا للشخصيتين:

١ – صحيح مسلم (٤/ ٧٩١٢) رقم (٥٦٨٢).

- **المقدمة الأولى**: كل تنمية لا تستهدف ترقي الإنسان، ولا يظهر أثرها على الحياة اليومية للمواطن العادي ليست بتنمية، فالفرق كبير بين حاكم يستغل كل مقدرات البلاد لبناء المجد الشخصي، أو لصالح الفئة تساعده، وبين حاكم نقل بسياسته حياة الناس إلى أعلى في العدل، والتعليم، والأمن، ورخاء الحياة اليومية.

- **المقدمة الثانية**: الزعيم الحقيقي هو الذي يخطط تخطيطاً مقصوداً لإعداد صفاً ثانياً من القادة والنخب في جميع المجالات، حتى إذا ما خلا مكان فالبديل موجود، وصف الرجال ممدود، والقادرون على تحمل المسئولية معروفون، ومدربون، ولنا في مؤتمر سقيفة بني ساعدة موعظة.

- **المقدمة الثالثة**: في التاريخ لحظات فارقة وحوادث كاشفة تبين لك صحة نظرتك في تحليل الحدث التاريخي وتقيم حكمك عليه.

إن الجامع بين الرجلين: محمد بن أبي عامر ومحمد علي أن كلا الرجلين سعيا لبناء مجد شخصي على حساب أي شيء وأن كلا الرجلين حطم نخب المجتمع فلم يبق في الناس رمز يجتمعون حوله وأن كلا الرجلين شديد الذكاء في تحقيق مصلحته الشخصية وأن كلا الرجلين سعى لتوريث الحكم من بعده وأن كلا الرجلين ترك من بعده دولة انهارت فجأة وضعفت بغير تدرج وهذا يرجع إلى أنه حطم نخبة المجتمع ولم يترك من بعده صفاً لديه المكانة والقدرة على القيام بأمر الأمة[1].

---

١ – مما يكشف عن ثقافة الناس في تلك الفترة وكيف يلتفون حول الرموز ما ذكره ول ديورانت في قصة الحضارة (٣١/ ١٩٢): "وعثر أبو القاسم محمد قاضي قضاتها على صانع حصر شبيه بهشام الثاني فنادى به خليفة، وآواه وأمسك هو بزمامه، وأقنع بلنسية، وطرطوشة وقرطبة نفسها بمبايعته. وبهذه الطريقة السهلة أقام قاضي القضاة الداهية أسرة بني عباد القصيرة الأجل. ولما مات في عام ٤٢٠١ خلفه ابنه عباد المعتضد وحكم إشبيلية بمهارة وقسوة مدة سبعة وعشرين سنة، وأخذ يمد سلطانة حتى كان نصف أسبانيا الإسلامية يؤدي له الجزية. وورث الملك من بعده ابنه المعتمد (٨٦٠١ – ٩١٠١) وهو في السادسة

ومن الإنصاف أن نقول: إن الناس في حكم محمد بن أبي عامر عاشوا في رخاء معيشي وأمـن مجتمعي – والإنجاز الاجتماعي لا يغني عن الإصلاح السـياسي – لكن الناس في عهد محمد علي عاشوا في ذل وفقر ومهانة وإليك كلمة مختصرة عن الرجلين.

محمد بن أبي عامر سـوف تقرأ عنه ما يشـبه الأساطير والحق أن الرجال كان كتلة من المواهب من الصعب أن تتجمع في إنسان واحد فهو عالي النسب[1] جميل الصورة فصيح اللسـان له قدرة عجيبة على الفوز بثقة من أمامه يسـتوي في ذلك الرجال والنسـاء ثم إنه يحسن إدارة الأموال فهو عقلية اقتصادية وهو يستطيع قيادة الجيوش فهو عقلية عسكرية بل لم يهزم في معركة من معاركة التي زادت على الخمسـين ووصل إلى أماكن في أوروبا لم يصـل إليها الفاتحون الأوائـل وأرعب كل حكام أوروبا جميعاً ودانوا له ثم إنه السـياسي

عشر من عمرهِ، ولكنه لم يرث عنه مطامعه ولا وقسوته. وكان المعتمد أعظم شعراء الأندلس، يفضل مجالس الشعراء والموسيقيين على مجالس الساسة وقواد الجند، ويجزل العطاء لمنافسيه من الشعراء، ولا يحسدهم على تفوقهم، فلم يكن يرى من الإسراف أن يجيز إحدى الملح الشعرية بألف دينار (٦٣). وكان يحب شعر ابن عمار، ولذلك اتخذه وزيراً له، وسمع جارية تدعى الرميكية ترتجل جيد الشعر، فابتاعها، وتزوجها، وظل حتى وفاته يحبها حباً شديداً، وإن لم يهمل غيرها من الغانيات في قصرهِ. وكانت الرميكية تملأ القصر بضحكها، وأحاطت سيدها بجو من المرح، جعل رجال الدين يلومونها على عدم اكتراث زوجها بشؤون الحكم، وما آلت إليه مساجد المدينة التي أوشكت أن تخلو من المصلين. لكن المعتمد مع هذا كان قادراً على أن يحكم، وأن يحب، ويغني. فلما أن هاجمت طليطلة مدينة قرطبة، واستغاثت قرطبة به، سير إليها حملة أنقذت المدينة من طليطلة، وأخضعتها لإشبيلية".

١ – هو محمد بن عبد الله بن عامر بن أبي عامر بن الوليد بن يزيد بن عبد الملك المعافري، وكان جدُّه عبد الملك المعافري من العرب الفاتحين الذين دخلوا الأندلس مع طارق بن زياد –رحمه الله، فنزل بالجزيرة الخضراء في جنوب الأندلس، واستقرَّ بها، وكان والد المنصور (عبد الله بن عامر) من أهل الدين والعفاف والزهد في الدنيا والقعود عن السلطان، وقد مات في مدينة طَرَابُلُس الغرب وهو عائد من أداء فريضة الحج، وأمه هي بُرَيْهَة بنت يحيى من قبيلة بني تميم العربية المعروفة.

الفذ الذي أنشأ دولة[1] داخل دولة وتغلب على كل منافسيه ولم يتغلب عليه أحد منهم وأحكم قبضته على مقاليد حكم الأندلس وجزء من المغرب وبنى المدن وأنصف المظلوم وحكم بالعدل وسوى بين الغني والفقير أمام القضاء وقضى حوائج اليتامى والأرامل والمساكين وشهد الناس في عهده أماناً على أنفسهم وأموالهم لم يشهدوه من قبل وعُرف عنه مكافأة المحسن ومعاقبة المسيء وقد قتل ولده عبدالله لما خرج عليه وعاقب ابن عمه جلداً مات بسببه[2].

ولا يغرنك كل ما ذكرناه من وجوه المدح فالرجل ترك من بعده دولة بلا نخبة فانفرط عقدها بموته وتحولت إلى طوائف متناحرة واستحالت الأندلس القوية دويلات صغيرة قد تكون الدويلة فيها بحجم المدينة فيما عُرف تاريخياً بعصر ملوك الطوائف ثم تدحرج الأمر من الضعف إلى السقوط وخروج المسلمين من بلاد الأندلس نهائياً.

أما عن محمد علي باشا فإني أذكر بعض ما كتبه الشيخ محمد عبده – رحمه الله – بنصه في مقال عنوانه آثار محمد علي في مصر يقول: "لغط الناس هذه الأيام في محمد علي، وما له من الآثار في مصر، وأهلها، وأكثرت الجرائد من الخوض في ذلك والله أعلم ماذا بعث المادح على الإطراء، وماذا حمل القادح على الهجاء غير أنه لم يبحث باحث في حالة مصر التي وجدها عليها محمد علي وما كانت تصير بالبلاد إليه لو بقيت".

إلى أن قال: "ما الذي صنع محمد علي؟، لم يستطع أن يحيي، ولكن استطاع أن يميت

---

١ – قام بتأسيس دولة داخل دولة وعُرفت تلك الدولة باسم الدولة العامرية، في وجود خليفة أموي هو هشام المؤيد وقام بإرساء قواعد الحكم لأبناءه، إلا أن الأمر لم يستمر طويلاً حيث انتهت سيطرتهم على حكم الأندلس بعد أقل من عقد من الزمن على وفاته.

٢ – للمزيد انظر: البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب (٢/ ٦٦٢) لابن عذاري المراكشي، أبو عبد الله محمد بن محمد (المتوفى: نحو ٥٩٦هـ). وقصة الحضارة (٣١/ ٧٨٢) ول ديورانت.

كان معظم قوة الجيش معه، وكان صاحب حيلة بمقتضى الفطرة فأخذ يستعين بالجيش، وبمن يستميله من الأحزاب على إعدام كل رأس من خصومه ثم يعود بقوة الجيش، وبحزب آخر على من كان معه أولاً، وأعانه على الخصم الزائل فيمحقه، وهكذا حتى إذا سُحقت الأحزاب القوية، وجه عنايته إلى رؤساء البيوت الرفيعة فلم يدَع منها رأسًا يستتر فيه ضمير (أنا)، واتخذ من المحافظة على الأمن سبيلاً لجمع السلاح من الأهلين، وتكرر ذلك منه مرارًا حتى فسد بأس الأهالي، وزالت ملكة الشجاعة منهم، وأجهز على ما بقي في البلاد من حياة في أنفُس بعض أفرادها فلم يبقِ في البلاد رأسًا يعرف نفسه حتى خلعه من بدنه أو نفاه مع بقية بلده إلى السودان فهلك فيه.

أخذ يرفع الأسافل ويعليهم في البلاد والقرى كأنه كان يحن لشبه فيه ورثه على أصله الكريم حتى انحط الكرام وساد اللئام ولم يُبقِ في البلاد إلا آلات له يستعملها في جباية الأموال وجمع العساكر بأية طريقة وعلى أي وجه فمحق بذلك جميع عناصر الحياة الطبيعية من رأي وعزيمة واستقلال نفس ليصيّر البلاد المصرية جميعها إقطاعًا واحدًا له ولأولاده على أثر إقطاعات كثيرة كانت لأمراء عدة".

الملأ بين الماضي و الحاضر

منـذ ظهـرت أمة الإسـلام والنخبة المحترمة فيهـا هم أهل العلـم، والديانة، والخبرة يرجـع النـاس إليهـم، ويأخذون برأيهم، وينزلـون على رؤيتهم هكـذا كان الناس في كل عصور القوة، ولا أدل على ذلك من يوم سـقيفة بني سـاعدة حين اجتمع كبار الصحابة، واختاروا خليفة للنبي ﷺ، ولم يعترض أحد من الناس على ذلك، وبقي الأمر على حاله هذا فالناس – ولو كان فيهم تقصير وفسق – يحترمون أهل العلم والديانة.

ويـأتي عصر محمد علي باشـاً ولا يزال صفوة النـاس ونخبتهم وأهل حلهم وعقدهم هـم علـماء الدين وبخاصة رجال الأزهـر وقبله مباشرة أثناء الحملة الفرنسـية كان علماء الأزهر هم من بث في الناس روح الجهاد في سبيل الله ولقد كانت هذه الحقبة هي من أكثر الحقـب التي ظهرت فيها قوة الأزهر وعلمائه ودورهم في الدفاع عن الدين والوطن فهم من قادوا الشـعب للثورة ضد الفرنسيين مرتين فى ثورتي القاهرة الأولى والثانية وهم من ولوا محمد على حكم مصر قبل أن يغدر بهم عندما أمر بعزل السـيد عمر مكرم من نقابة الاشراف ونفاه الي دمياط وبالتخلص منه يكون نفوذ المشـايخ ودورهم السياسي قد زال ولم يعد ملموسا في حياة مصر[1].

---

١ – انفرد محمد علي بالسلطة، وفرض نفسه كمالكٍ فعلي وحيد للبلاد، وسيد لمصائرها الحيوية. ففي عام ١٨٠٨، وبعد مضي ثلاثة أعوام فقط من حكمه، أصبح مالكاً لجميع أراضي القطر المصري، كما احتكرت الدولة في عصره تجارة المحاصيل الزراعية والسلع الصناعية)

و نفى الزعيم الوطني عمر مكرم خارج القاهرة وصادر أملاك المشايخ والأعيان والتجار واستولى على أوقافهم، ودبر أشهر مذبحة في تاريخ مصر وهي مذبحة المماليك، وفاق استبدادُه الولاة العثمانيين السابقين له في الحكم منذ عام ١٥١٧

ثـم بـدأت مرحلة النخبة المتغربـة التي تشربت الثقافة الأوربيـة ودعت إليها كمنهج حياة إنها النخبة المبهورة بالتقدم العلمي والمادي في أوربا عندما فتح محمد علي باشا قنوات التواصـل والتعاون مع أوروبـا وتم التعاون في كل الميادين، لنقل نظـم التعليم والإدارة والتشريع والتخطيط العمراني، وبعثت مصر بأنجب أبنائها إلى فرنسـا وإنجلترا وإيطاليا فبـدأت مرحلة النخبـة المتغربة التي تشربـت الثقافة الأوربية ودعت إليهـا كمنهج حياة لكن هذه النخبة بالرغم من تلميع الاحتلال لها وتصدرها المشـهد السـياسي والإعلامي وتغلغلهـا في مفاصـل الدولـة ظلت منذ نشـأتها وحتـى الآن قلة لها ملامحهـا الخاصة بها المختلفة عن طبيعة الإنسـان المسـلم وإن بدا في مرحلة معينة أنها واسعة التأثير ولكنها في النهاية لم تتغلغل إلى باطن الشخصية المسلمة.

في الفصـل العشريـن مـن كتاب حيـاتي[1] للأسـتاذ الكبير أحمد أمين ذكر من سـيرته

و قد أدت سياسات محمد علي إلي تغيير البناء الاجتماعي و السياسي في مصر و من ذلك :

١- انتهي نفوذ المماليك كطبقة حاكمة وحل محلها أسرة محمد علي وبعض العناصر التركية.

٢- قل نفوذ علماء الأزهر والزعامات الشعبية وحل محلها خريجو المدارس.

٣- ظهور طبقة الأعيان من كبار ملاك الأراضي ومتوسطي الملاك وازدادت قوتهم.

٤- ظهور طبقة عمال الصناعة في المصانع واستمرار طوائف الحرف للصناعات الصغيرة كوسطاء للحكومة.

٥- تدهور طبقة التجار لاحتكار الحكومة للتجارة فاختفت الشخصيات التجارية (أحمد المحروقي) وحل محلها التجار الأجانب بوكالاتهم كوسطاء.

من هنا فقط يمكن أن نفهم موقف المصريين من محمد علي باشا الذي ظل حاكماً حتى أصيب بالخرف فتنازل عن العرش في سبتمبر أيلول ٨٤٨١ قبل أن يتوفى في الإسكندرية في ٢ أغسطس آب ٩٤٨١. إن محمد علي باشا الذي رحل عن عالمنا عن عمر يناهز الثمانين، لم يحضر جنازته سوى حفنة من القناصل الأجانب ولم تغلق المحال أبوابها، كما هي العادة في مثل هذه الظروف، فنقل جثمانه من الإسكندرية إلى القاهرة عبر النيل وحيداً، ودفن في جامعه بالقلعة .

١ - «حياتي» هو سيرة ذاتية للمفكر البارع أحمد أمين رحمه الله، يسرد فيها بأسلوبه الماتع ما مر به من تجارب في حياته بدءًا من مرحلة الطفولة والصبا ثم الشباب والرجولة التي تنقّل فيها بين مناصب القضاء والتدريس ثم انتهاءً بوصوله إلى الجامعة التي عُيِّن فيها أستاذًا وعميدًا لكلية الآداب، وقد عاصر أمين خلال تلك

مواقف تظهر لنا ما نحن بصدده، وقد اخترت هذا الكتاب لسببين: الأول أنه سيرة ذاتية لكاتبها، والسير الذاتية تعرض لك تفاصيل ليست في كتب التاريخ، وهي تفاصيل توضح بدقة كيف كانت تعيش هذه الطبقة من الناس؟!، وكيف تتفاعل الشخصيات؟!، والثاني أن سيرة الأستاذ الكبير أحمد أمين تحديداً باعتباره في زمن يتوسط صمود النخبة الأزهرية الخالصة، وظهور النخبة المتغربة، فقد سجل في هذا الفصل أحداثاً وقعت في العقد الثاني من القرن العشرين، وأنا أقدم لكم ما قاله بلا تعقيب، وأترك التعقيب لكم، لكني ألفت النظر إلى نوعية الأشخاص المذكورين، والقضايا المثارة، والجدل القائم، مع الأخذ في الاعتبار أن الرجل عاصر الشيخ محمد عبده في آخر حياته، وسعد زغلول، وقاسم أمين، وطه حسين، والشيخ مصطفى عبدالرازق، وطلعت حرب، وغيرهم من مشاهير النخبة المصرية، يقول ما نصه: "وكان لي بجانب هذه المدرسة من الأصدقاء ذوي الثقافة الإنجليزية جمعية من أصدقاء آخرين ذوي ثقافة فرنسية غالبا، عميدها صديقي المرحوم الشيخ مصطفى عبد الرازق الذي كان شيخاً للأزهر فيما بعد، ومن بينهم الدكتور منصور فهمي والمرحوم الأستاذ عزيز مرهم والأستاذ محمد كامل البنداري، والدكتور محمود عزمي وغيرهم وكان مكانها في بيته، وكان أكثر أعضائها من خريجي الجامعات الفرنسية ومما ألف بينهم إقامتهم في فرنسا وتعلمهم بها؛ وإذا كان يكثر في الجامعات الأولى ذكر شكسبير وديكنز وماكولي وبرناردشو، فقد كان يكثر في هذه الجمعية ذكر جان جاك روسو وفولتير وراسين وموليير ودركهايم، وإذا كانت الجمعية الأولى تغلب عليها المحافظة والاعتدال فهذه يغلب عليها التحرر والثورة على القديم — كنا نجلس في هذه الجمعية، وقد يحضر فيها أحيانًا بعض السيدات الفرنسيات

الفترة نخبة من عظام المفكرين المصريين أمثال: طه حسين، وأحمد لطفي السيد وغيرهم، ومزية هذا الكتاب أنه لا يطل بنا فقط على الحياة الشخصية للمؤلف، بل يطلعنا أيضًا على الأحوال الاجتماعية والاقتصادية والثقافية والسياسية السائدة في أواخر القرن التاسع عشر، وأوائل القرن العشرين.

زوجـات بعـض المصريين، وبعض العلماء من الأزهر، ويتشـقق الموضـوع ويثار الجدل، ويكون الحديث مزاجاً بين حرية فرنسية واعتدال إنجليزي ومحافظة أزهرية، نتحدث في السياسة وحرية المرأة، وفي المقارنة بين فرنسا ومصر.

وكان مـن أعجـب مـن عرفـت في هـذه الجمعية شـاب تثقـف ثقافـة قانونيـة امتاز بالشـجاعة الأدبية والصراحة، فكان لا يقـول إلا ما يعتقد، ولا يعمل إلا وفق ما يعتقد، على حين أن كثيراً من الشبان يرون الرأي ثم لا يقولونه، وإذا قالوه لا يعملون على وفقه، كالذي سـمعت أن جماعـة كانوا يجتمعون في منظـرة في بيت وكانوا يتجادلون في سـفور المرأة وحجابها، وكان صاحب البيت أكثرهم تحمساً للسفور ودفاعاً عنه وتأييداً له، فبينما هم في المناظرة إذا بصوت سيدة عجوز هي جدة صاحب البيت يصل إلى آذان المتناظرين في المناظـرة فيخجـل صاحب البيت ويصعـد إلى جدته يؤنبها على علـو صوتها وقد نسي محاضرته في السفور.

أما صاحبنا هذا فكان شـجاعاً جريئا في كل ما يقول ويعمل، تزوج فتاة مصرية، وإذ كان يعتقد السـفور حملها على السـفور فأطاعته، في وقت عز فيه السـفور، وعلا الصوت في نقـده ومقتـه، فكان يخرج بها في المجتمعات ويزور معهـا الأصدقاء، ويجلس هو وهي في مقهى ولا يعبأ بنقد الناقدين ولا عيب العائبين، وكان وكيل نيابة في أسيوط وأسيوط بلد محافظ، فعابوا عليه تصرفه وشـكوه للحقانية فلفتت نظره فصمم على عمله فنقل إلى الإسكندرية ولم يتحول عن طريقته. وأخيراً رماه الزمان الذي لا يرحم بداء السل وألح عليـه المرض فألزمـه السرير، وتفرق عنه أهلـه وأقرباؤه، فعكف وهـو على سرير الموت يكتب كتاباً عنوانه «كلمتي إلى أمتي» ثم لفظ النفس الأخير.

كنا نجلس يوماً مع نخبة من هذه الجماعة وكان أحدها يصدر جريدة اسمها «السفور» يدافع فيها عن رأي قاسم أمين ويدعو إليه، فدعانا أن نأخذ الجريدة، ونساهم معه في إخراجها ونتولى تحريرها فقبلنا هذا العرض، وتألفت لجنة من الجمعيتين جمعيتي الأولي المثقفة ثقافة إنجليزية وجمعيتي الثانية المثقفة ثقافة فرنسية، وتسلمنا الجريدة نحررها، وكانت جريدة أسبوعية، فكنا نجتمع يومين أو ثلاثة في الأسبوع نقرأ بريد الجريدة ونقرأ فيها ما حرره كل منا من مقالة وننقد ما نسمع ونجيز أو لا نجيز ما ينشر، وجهدت أن أكتب مقالة كل أسبوع، فكان ذلك أول عهدي بالصحافة وبالكتابة، وكان ذلك أيضاً على ما أذكر سنة ١٩١٨م.

وفي هذا العهد كثر الحديث في مجالسنا عن الزواج والأزواج والزوجات وسعادة الزوجية وشقائها وضرورتها أو الاستغناء عنها والزواج بالأجنبيات والمصريات، ورويت الأحاديث المختلفة عن فلان المتزوج الذي سعد في زواجه وفلان المتزوج الذي شقي بزواجه، وفلان الذي أضرب عن الزواج واستمتع بالحياة في أولها وشقي في آخرها وهكذا، وجال الموضوع في ذهني في قوة ووجدتني قد بلغت التاسعة والعشرين، فصممت أن أبت في الموضوع هل أتزوج أو لا أتزوج، وأخيراً وبعد تردد طويل قررت أن أتزوج، ولكن نشأت العقدة الثانية: من أتزوج؟ وكان السفور في هذا الزمن في أول أمره لم يجرؤ عليه إلا عدد محدود من المثقفات، فكان الزواج غالباً يخضع للتقاليد القديمة؛ يسمع الشاب من صديقه أو أحد أقاربه أن لفلان بنًتا في سن الزواج، وقد يبلغه هذا الخبر من محترفة لهذه الوظيفة وهي التي تسمى «الخاطبة» وهي امرأة تزور البيوت وتتعرف أخبارها وترى من فيها من الشابات في سن الزواج أو من الشباب الذين يريدون الزواج، وتكون واسطة بين أهل الزوج وأهل الزوجة في تعريف هؤلاء بأولئك، فيتقدم أحد أقارب الشاب إلى أبي الشابة أو ولي أمرها يعرض عليه الرغبة فإذا

قبل أرسل الشاب أمه وبعض قريباته من النساء لرؤية الفتاة، فإذا وصفوها وصًفا اقتنع به تقدم للزواج من غير أن ينظرها ويعرف شكلها وطباعها وأخلاقها. وإنما يعرف ذلك كله بعد عقد العقد وبعد الزفاف.

وهكذا كان الزواج في عهدي في مثل طبقتي، وكنت شاباً لا بأس بشكله ولا بأس بأسرته، فأنا وبيتي نعد من الأوساط وأنا أحمل شهادة عالية، ومرتبي نحو ثلاثة عشر جنيهاً وهو مرتب لا يستهان به في ذلك العصر، وكنت أتلمس الزواج في أمثالي من الأوساط. لا أطلب الغنى ولا أطلب الجاه، ومع ذلك كله وقفت العمامة حجر عثرة في الطريق، فكم تقدمت إلى بيوت رضوا عن شبابي ورضوا عن شهادتي ورضوا عن مرتبي، ولكن لم يرضوا عن عمامتي، فذو العمامة في نظرهم رجل متدين، والتدين في نظرهم يوحي بالتزمت وقلة التمدن والالتصاق بالرجعية والحرص على المال ونحو ذلك من معان منفرة، والفتاة يسرها الشاب المتمدن اللبق المساير للدنيا اللاهي الضاحك، فكم قيل لي أن ليس عندهم مكان لعمامة. ورضي بي قوم أولا وأحبوا أن يروني، فأحببت أن أريهم أني متمدن، وذهبت إليهم أحمل كتاباً إنجليزيا، وجلست إليهم وجلسوا إلي وتحدثت عصرياً على آخر طراز وحشرت في كلامي بعض كلمات إنجليزية فاستغربوا لذلك. وفهمت أنهم أعجبوا بي ورضوا عني، ولكن بلغني أن الفتاة أطلت على من الشباك وأنا خارج فرأت العمامة والجبة والقفطان فرعبت ورفضت رفضاً باتًا أن تتزوجني رغم إلحاح أهلها. وشاء القدر أن تتزوج هذه الفتاة — فيما بلغني شاباً أنيقًا كاتباً في وزارة ولكنه سكير معربد أذاقها المرار في حياتها الزوجية ثم طلقها، ومازال سوء حالها حتى تزوجت بعامل في التلغراف وجاءت إلي وأنا قاض في محكمة الأزبكية تطلب من زوجها النفقة.

وهكـذا لقيـت العناء في الـزواج، فكلما دلني صديق على فتاة فإمـا أن أجد مانعاً منها وإمـا أن تجـد مانعاً مني، فمـن أرضاه لا يرضاني ومـن يرضاني لا أرضـاه. وأخيراً دلني مدرس معي في مدرسة القضاء على بيت رضيني ورضيته، فأرسلت أمي وأختي وزوجة الأستاذ لرؤية الفتاة فرأينها ووافقن عليها، وجعلت أسأل أمي وأختي أسئلة عن شكلها وملامح وجهها وطولها وعرضها وفراسـتها في أخلاقها ونحو ذلك، وأستمع لإجابات لا تصور شكلا ولا توضح حقيقة وأجلس إلى نفسي وأعمل خيالي فيما سمعت، فأصوغ مـن ذلك شـكلا. وقـد أجلس معهما مرة أخرى أسـمع منهـما حديثًا آخـر ووصفًا آخر، فأتخيـل من ذلك صورة أخرى وهكذا، وأخيراً سـلمت الأمـر لله وتركت التصوير حتى ترى العين ما رسـم الخيال، وتم عقد الزواج يوم ٣ إبريل سـنة ١٩١٦، وقد أخذت يوم العقـد مائة جنيه إنجليزي ذهباً في علبة جميلة قدمتها مهراً للزوجة، وانتظرت نحو أربعة أشهر حتى يتم أهل الزوجة الجهاز.

وكانت هذه الأشهر الأربعة مجال تفكير في السعادة المرجوة والأحلام اللذيذة، وبناء القصور على الآراء الفلسفية أو النظريات المدونة في الكتب، فأنا أزور المكتبة الإنجليزية وأبحث عما كتب في الزواج، فأعثر — مثلا — على سلسلة من الكتب أحدها فيما ينبغي للـزوج أن يعلـم، وثانيهـا فيما ينبغـي للزوجة أن تعلـم وهكذا. ثم أجد كتابـاً في الزواج السـعيد وآخر في الأسرة، وثالثًا في تربية الطفل فأقرؤها وأفكر فيها وأسـتخلص منها ما يجب أن أعمل لأسعد وعلى أي الأسس أبني أسرتي وهكذا.

وقـد ذهبت بعيد الـزواج إلى مصور صورني صورة تذكارية احتفظت بها، ووجدتني قـد كتبت عـلى ظهرها العبارات الآتيـة: «هذه صورتي أخذت يوم الجمعة ٧ إبريل سـنة ١٩١٦ وسـني تسـع وعشرون سـنة وسـتة أشـهر، عقب عقد زواجي بأربعة أيام، وقد اتخـذت الكتـب شـعاراً لي في الصورة، فوضـع المصور أمامـي كتبا من عنده وأمسـكت

بيـدي اليسرى كتاب «مبادئ الفلسـفة» وكنت قـد عربت أكثره وأوشـك على الانتهاء. وقد لاحظت أن أصور صورة في غاية البسـاطة فلم أتعلم شـيئًا إلا اختيار الثوب الذي اخترته يوم عقد الزواج، وربما كان الباعث لي على هذا التصوير ما أشـعر به من أني قادم عـلى حياة جديـدة ومرحلة جديدة، فقد أنهيت حياة الوحدة وسـأقدم على حياة الأسرة، وأنا مقتنع أن هذه البيئة الجديدة سيكون لها أثر كبير في نفسي وجسمي وعقلي، وسأقارن بين المعيشـتين وأثرهما إذا كان في الأجل متسـع — ومن البواعث على هذا التصوير أيضاً علمي أن السنة المتممة للثلاثين تختم حياة الصبا والفتوة وتفتح حياة يغلب عليها العقل والرويـة، عـلى أني — والأسـف يملأ فـؤادي — لم أنتفع بزمـن الصبا والفتـوة كم كان يجـب، فلم يجد المرح والنشـاط واللهو — ولـو كان بريئًا — ولا الحـب إلى قلبي منفذًا، بل تشـايخت منذ الصبا — وهذا ولا شـك أثـر التربية المنزلية، فقد كانت تربية أساسـها التخويـف والإرهـاب، ولم يكن في بيتي أي مظهر من مظاهـر البهجة والسرور، وإني في هذه السنة أحس شيئًا من النشاط على أثر دروسي الإنجليزية مع مدرسة إنجليزية كانت تصلح من نفسي كما تصلح من لساني، وكانت تنتقد في الهدوء والسكينة، كما كان لدروس الأخـلاق مع عاطف أثر كبير في نفسي؛ ومما أحسـه أيضـاً أنني أكثر حرية في الفكر وأكثر نقـداً لما يعرض لي؛ وأكثر ميلي هذه السـنة إلى القـراءة في عملي الأخلاق والاجتماع مع ما أجـد من الصعوبـة في فهم ما أقرأ، لقرب عهدي بتعلم الإنجليزية، فقد بدأت تعلمها في يناير سنة ١٩١٤ فلي الآن نحو سنتين ونصف سنة وهي مدة لم تكف في التبحر فيها.

وأنا الآن مدرس بمدرسـة القضاء ومرتبي ١٣٢٠ قرشـاً في الشهر ولم أمل التدريس ومازلت أفضله على القضاء وأنا أرجو من الله أن يعينني على القيام بعمل عظيم أخدم به أمتي من الناحية الخلقية والاجتماعية». (كتب في ٢٠ يوليو (تموز) سنة ١٩١٦).

وليس لي تعليق على ما كتبته خلف الصورة إلا على قولي «إن الحب لم يجد إلى قلبي منفذًا» فهو تعبير غير دقيق وقوي لا يصدق إلا على رجل جامد العواطف، بل كانت عواطفي أقرب إلى أن تكون حادة ولاسيما في أيام الشباب الأولى ظهرت حدتها في العاطفة الدينية فقد كانت مشبوبة حادة، وفي حبي لأصدقائي فقد كنت آنس بقربهم وآلم لبعدهم، وفي عاطفة الرحمة والشفقة على الفقراء والبائسين ونحو ذلك من مظهر للعواطف، بل لقد تحركت في عاطفة الحب منذ الصبا، فقد أحببت وأنا في نحو الخامسة عشرة ابنة جار لنا والتهبت عاطفتي فأرقت كثيراً وبكيت طويلا، وكل ما كان من وصال أن أجلس أنا وهي على كرسيين أمام دارها نتحدث في غير الغرام، فلما وسوس الشيطان لأبيها حجبها عني وشقيت زمنًا بذلك ثم سلوت، ثم أحببت المدرسة الإنجليزية الشابة حباً ضنيت به ولم تشعر به، وكل ما سعدت به ساعات الدرس أتحدث إليها وتتحدث إلي وتنظر إلي بعينيها الصافيتين الأمينتين، ولكنه كان حبا يائساً، فهي متزوجة مخلصة لزوجها سعيدة بزواجها، فعاطفة الحب كانت في أعماق نفسي ولكنها مكبوتة، حال دون ظهورها وسطي، فالفتاة لم تكن سافرة سفور اليوم، وكان الشاب لا يعرف من الفتيات إلا أقاربه، وكانت تربيتي الدينية تعد الحب فجوراً والنظر إلى الفتاة وحديثها إغواء شيطانيا، ومدرستي كبيتي متزمتة متعنتة، لا ترتاح لأن يجلس طالب في قهوة، وتعاقب من وجد في صالة غناء. وحدث مرة أن شوهد متخرج حديثًا من المدرسة يجلس في مقهى الأزبكية مع صاحبيه من غير المدرسة وأمامهم كاسات من البيرة، فكان من سوء الحظ أن مر عليهم عاطف بك ورأى هذا المنظر، ومع أنه لم يتحقق من شرب هذا الشاب البيرة فقد حرمه من تولي القضاء سنين، ورفض كل رجاء في العفو عنه، ولم يعين بعد إلا بضغط عليه شديد أو رغماً عنه. كل هذا لم يهبني مجالا للحب، بل كبته في أعماق نفسي إلى أن تزوجت.

وبعد العذاب في اختيار الزوجة وعقد العقد وإعداد الجهاز اخترت بيتًا أسكن فيه وحدي مع زوجي قريباً من بيت أهلي، وحرصت على ذلك حتى أتجنب الأقوال الشائعة والحكايات التي لا تنتهي في النزاع بين الزوجة والأم، وكذلك تمت هذه المرحلة.

لا تقوم دولة الدين على أكتاف المغرورين أو الطامعين.

الملأ المخلصون هم الذين يهضمون أنفسهم لأجل دينهم و شعوبهم و هذا درس نتعلمه من قصة طالوت فقد ذهب الملأ إلى نبيهم و طلبوا منه أن يبعث لهم ملكاً و هنا إشارتان في غاية الأهمية الإشارة الأولى ذهابهم إلى النبي يعني تنازلهم عن أفكارهم العقلية وآرائهم الشخصية والخضوع لمنهج الأنبياء والتنازل عن الأفكار الشخصية والقناعات العقلية أفضل ما يُستدل به على قتل للكبر، والإشارة الثانية أنهم طلبوا ملكاً وهذا يعني الاستعداد للتنازل عن مكانتهم العالية وتصدرهم المشهد لصالح ملك يختاره نبيهم وفي هذا قتل للغرور والطمع جميعاً.

و الإشارتان تدلان على تغليبهم مصلحة الشعب العليا على المصالح الشخصية الضيقة وهذا لا يكون إلا بتوفر الفهم الصحيح والإخلاص العميق. فلقد عهد الناس في زعماء الهزيمة أنهم لا يحبون الوحدة لأنها تكلفهم التنازل عن كراسيهم ولا يستريحون لمناهج الأنبياء لأنها تلجم شهواتهم وتكسر غرورهم .

و تأمل هذا الموقف من سيرة النبي ﷺ قَالَ ابْنُ إسْحاقَ : وَحَدّثَنِي الزّهْرِيّ أَنّهُ أَتَى بَنِي عَامِرِ بْنِ صَعْصَعَةَ فَدَعَاهُمْ إلَى اللّهِ عَزّ وَجَلّ وَعَرَضَ عَلَيْهِمْ نَفْسَهُ فَقَالَ لَهُ رَجُلٌ مِنْهُمْ – يُقَالُ لَهُ بَيْحَرَةُ بْنُ فِرَاسٍ قَالَ ابْنُ هِشَامٍ : فِرَاسُ بْنُ عَبْدِ اللّهِ بْنِ سَلَمَةَ (الْخَيْرِ) بْنِ قُشَيْرِ بْنِ كَعْبِ بْنِ رَبِيعَةَ بْنِ عَامِرِ بْنِ صَعْصَعَةَ – : وَاَللّهِ لَوْ أَنّي أَخَذْت هَذَا الْفَتَى مِنْ قُرَيْشٍ ، لَأَكَلْتُ بِهِ الْعَرَبَ ، ثُمّ قَالَ أَرَأَيْتَ إنْ نَحْنُ بَايَعْنَاك عَلَى أَمْرِك ، ثُمّ أَظْهَرَك اللّهُ عَلَى

مَـنْ خَالَفَـك ، أَيَكُونُ لَنَا الْأَمْرُ مِنْ بَعْدِك ؟ قَالَ الْأَمْرُ إلَى اللّه يَضَعُهُ حَيْثُ يَشَـاءُ قَالَ فَقَالَ لَـهُ أَفَتُهْدَفُ نَحُورُنَـا لِلْعَرَبِ دُونَك ، فَإِذَا أَظْهَرَك اللّهُ كَانَ الْأَمْرُ لِغَيْرِنَا لَا حَاجَةَ لَنَا بِأَمْرِك ، فَأَبَوْا عَلَيْهِ فَلَمّا صَدَرَ النّاسُ رَجَعَتْ بَنُو عَامِرٍ إلَى شَيْخٍ لَهُمْ قَدْ كَانَتْ أَدْرَكَتْهُ السّنّ ، حَتّى لَا يَقْدِرَ أَنْ يُوَافِيَ مَعَهُمْ الْمَوَاسِمَ فَكَانُوا إذَا رَجَعُوا إلَيْهِ حَدّثُوهُ بِمَا يَكُونُ فِي ذَلِك الْمَوْسِمِ فَلَمّا قَدِمُوا عَلَيْهِ ذَلِك الْعَامَ سَأَلَهُمْ عَمّا كَانَ فِي مَوْسِمِهِمْ فَقَالُوا : جَاءَنَا فَتًى مِنْ قُرَيْشٍ ، ثُمّ أَحَدُ بَنِـي عَبْـدِ الْمُطّلِبِ ، يَزْعُمُ أَنّهُ نَبِـيّ ، يَدْعُونَا إلَى أَنْ نَمْنَعَهُ وَنَقُومَ مَعَـهُ وَنَخْرُجَ بِهِ إلَى بِلَادِنَا قَالَ فَوَضَعَ الشّـيْخُ يَدَيْهِ عَلَى رَأْسِـهِ ثُمّ قَالَ يَا بَنِي عَامِرٍ هَلْ لَهَا مِنْ تَلَافٍ هَلْ لِذُنَابَاهَا مِنْ مَطْلَبٍ وَالّذِي نَفْسُ فُلَانٍ بِيَدِهِ مَا تَقَوّلَهَا إسْمَاعِيلِيّ قَطّ ، وَإِنّهَا لَحَقّ ، فَأَيْنَ رَأْيُكُمْ كَانَ عَنْكُمْ . وَالّذِي نَفْسُ فُلَانٍ بِيَدِهِ مَا تَقَوّلَهَا إسْمَاعِيلِيّ قَطّ ، وَإِنّهَا لَحَقّ ، فَأَيْنَ رَأْيُكُمْ كَانَ عَنْكُمْ[1] .

و الشاهد من الموقف أن زعيم بني عامر كان ذا فراسة وطمع أما فراسته فقوله :"وَاَللّهِ لَـوْ أَنّي أَخَـذْت هَذَا الْفَتَى مِـنْ قُرَيْشٍ ، لَأَكَلْتُ بِهِ الْعَرَبَ" ، و أمـا طمعه فقوله : "أَيَكُونُ لَنَـا الْأَمْـرُ مِـنْ بَعْـدِك ؟" ، إنه يريد الرياسـة والزعامة فكان الرد من النبي ﷺ حاسـماً لا تلون فيه: " الْأَمْرُ إلَى اللّه يَضَعُهُ حَيْثُ يَشَـاءُ" ، في هذا الرد درس بليغ و عبرة، إن الطامع في الزعامة السـاعي لمجد شـخصي لا يبني دولة هذا الدين لآنه إذا لم يحقق مطمعه كفر بما ادعـى أنـه مبدأه و بخل بجهده و ضن بماله و انفسـخ عزمه لذلك قـال الزعيم الطامع : "أَفَتُهْدَفُ نَحُورُنَا لِلْعَرَبِ دُونَك ، فَإِذَا أَظْهَرَك اللّهُ كَانَ الْأَمْرُ لِغَيْرِنَا لَا حَاجَةَ لَنَا بِأَمْرِك" .

و الخلاصـة إن هـذا الدين عزيز و عظيم و هـو لعزته و عظمته لا يعطي خيره لطامع أو مغرور أو بخيل و إنما يعطي لمن آمن حقاً و قال صدقاً و تواضع في عزة و آثر الآخرين على نفسه .

١ – سيرة ابن هشام (١/ ٤٢٤) .

المنهج

- التبرؤ من مناهج البشر و التمسك بمنهاج النبوة .
- هدي أوربا أم هدي محمد – صلى الله عليه و سلم – .
- خطة عمل .
  - أولاً: التربية الفردية .
  - ثانياً: تربية المجتمع .
  - ثالثاً: بناء الدولة .

هدي أوربا أم هدي محمد ﷺ.

قال تعالى : ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلْمَلَإِ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰٓ إِذْ قَالُوا۟ لِنَبِىٍّ لَّهُمُ ....﴾ (البقرة:٢٤٦)، وأنا هنا أتوقف عند ذهاب الملأ لنبيهم، وهذا يعني بوضوح أن الكبراء، والرؤساء من بني إسرائيل الباحثين عن الدخول إلى عصر جديد، وبناء دولة قوية رأوا حتمية التخلي عن مناهج البشر؛ لينصلح حال شعبهم، وأنهم يريدون اتباع منهج الأنبياء، والسير على مراد الله لقد علم الملأ من خلال علمهم بتاريخ قومهم في مراحل قوتهم ومراحل ضعفهم ومن خلال فهمهم لطبيعتهم أنه لا صلاح لهم إلا بدين يصلح نفوسهم ومجتمعهم.

من المعلوم أن لكل سياسة إصلاحية خلفية عقائدية فكرية (أيديولوجية) تشكل أساساً لها وتتحكم في صياغة أهدافها، ووسائلها، ونوعية الأشخاص الذين يقومون بها، وسمات العمليات الإدارية التي تمر بها من تخطيط وتنفيذ ومراقبة ومتابعة.

والفكر الإسلامي مرجعيته القرآن والسنة، وهذا يحميها من القصور، وتلاعب الأهواء، لذلك فالفكر الإسلامي نظرته شاملة للإنسان، والكون، والحياة، ووسائله طاهرة شريفة، إن ظهر قصور، ففي فهم المجتهد، أو تطبيق المتنفذين.

وعلى المسلم الفطن أن يعتبر بمن سبق فالسعيد من وُعظ بغيره وما قص الله علينا هذه القصة وأمثالها للتسلية، وقتل الوقت، وإنما للتفكر، والاعتبار ومن وجوه الاعتبار من هذا الموقف أن الأمة الإسلامية لن ينصلح حالها بهذه المناهج البشرية التي فرضها علينا أعداؤنا، وأدواتهم؛ فأفسدت علينا حياتنا، وأرجعتنا للخلف مئات السنين، فهذه

المناهج من المستحيل أن تكون حلاً لأنها جزء من المشكلة أو أصل المشكلة ذاتها[1].

وكما يعتقد المسلمون أن الإسلام هو الرسالة الخاتمة التي تستحق الهيمنة على غيرها من الرسالات الإلهية فضلاً عن الفلسفات الوضعية، يعتقد الليبراليون أن الليبرالية الرأسمالية هي الفلسفة الخاتمة التي تستحق الهيمنة، يتأسس اعتقاد المسلمين على إيمانهم بأن الإسلام هو دين الله الذي له الخلق والأمر، وله العلم الشامل، وله الحكمة البالغة، وأن الإسلام يقدم عقيدة تولد نسقاً فكرياً يضبط العقل حين يفكر فلا يضل، ويؤسس لقناعات تضبط السلوك حين نتعامل فلا ننحرف، ويقدم نسقاً قانونياً هو شريعة تضبط حركة الناس في الحياة فلا نتناحر، ويقدم نسقاً أخلاقياً إنسانياً شاملاً متكاملاً فتعيش إنساناً مكرماً حين تقضي شهوتك، ومحترماً حين تختلف مع غيرك، ويقدم منظومة تعبدية تغذي ما سبق؛ وتقوي ما ضعف، وتجدد ما اندرس، والحاصل أنك أمام دين يحترم جسدك، وجسدك مادة يفتقر إلى شهوات تشبعه، وهو دين يرفع روحك، وروحك فيها سر المعنى فلا تستريح إلا بأن تقترب بسجود ودعاء وبكاء، وهو دين يعلمك أن بعد الموت حياة أخرى فاضبط سلوكك فبعد الموت عقاب، ولا تحزن على ما فاتك من الدنيا فبعد الموت ثواب، وهو دين ينسجم مع فطرتك فكلما تدينت استرحت، واستمتعت،

---

١ - أصبح الرأسمالي لا يرى حرجاً من إبادة شعوب بأكملها كما فعل بالهنود الحمر بحثاً عن الذهب الأصفر ، وكما فعل مع سكان مستعمراته في إفريقيا حيث اقتاد منهم الألوف - بعد أن نهب خيرات أوطانهم - مكبلين بالأغلال في الأعناق والأيدي والأقدام استغلالاً لسواعدهم وقوة أجسامهم في استثمار اقتصادي لا يعود نفعه إلا إلى الرأسمالي ذاته ، ثم من وحي أخلاقه الرأسمالية اعتمد معيار اللون والثراء في التفاضل ؛ فالنازية في ألمانيا ، جعلت العرق الآري أفضل من وجد على الأرض ، والرجل الأبيض عموماً في أوروبا وأمريكا وأفريقيا مارس أخلاقيات التفريق العنصري ، واصطفى ذاته لتكون في القمة . و الاشتراكية ، نمط نكد لا يخرج إلا ما كان نكداً ، يستمد كل تنظيراته الأخلاقية في شتى جوانبه الحياتية من أصوله الإلحادية ، ويقرر أن سعادة الإنسان تكمن في أخلاقيات الصراع الطبقي التي تدفع به - حسب زعمهم - إلى حياة الرفاة والرغد في مجتمع شيوعي تغيب عنه الدولة وتختفي فيه شارات الشرطة ويحكمه قانون (من كل حسب طاقته ولكل حسب حاجته)

وكلما صادمت فطرتك التوت عليك وأفقدتك التنعم بالنعم.

وكما يعتقد المسلمون أن الإسلام هو الرسالة الخاتمة التي تستحق الهيمنة على العالم كله بما لديها من نسق متكامل يشبع حاجات الإنسان المادية ويغذي الجوانب المعنوية ويجيب عن أسئلته الوجودية كذلك اعتقد الليبراليون أن الليبرالية الرأسمالية هي الفلسفة الخاتمة التي تجسد قمة النضج الفكري البشري فهم يقدمون الليبرالية ليس بوصفها نموذجاً[1] يمكن الأخذ به وإنما يقدمونها بوصفها ديناً يجب الإيمان به وأن غيرها من الأفكار والفلسفات حماقات فكرية ونفايات فلسفية يجب التبرؤ منها.

حين أعلن فوكوياما نهاية التاريخ في كتابه: "نهاية التاريخ والإنسان الأخير" أنكر المسلمون عليه، وعلى أمثاله إرادة هيمنتهم على العالم فكرياً، وحضارياً إنكاراً مبنياً على إيمانهم الجازم بضرورة هيمنة المنهاج الإسلامي على غيره في كل مناشط الحياة، ولكل صاحب معتقد – سواء كان معتقداً إلهي المصدر أو وضعي المنشأ – أن يتحمس لمعتقده وأن يدعي أحقية أفكاره بالتطبيق مدعياً أنها معدن الصواب، وأنها أرقى ما يمكن أن يعتقده بشر، وأنها سر سعادة الأفراد، واستقرار المجتمعات، ومن ثَم يسعى لإيجاد قوة تُخرج أطروحاته من دائرة الأنصار القليلين إلى محيط المجتمع الكبير، ومن مرحلة الدعوة إلى قوة الدولة، ومن طور التنظير إلى واقع التفعيل، ويطول الجدال بين من لا حيلة لهم إلا اللسان، ويحسم الأمر من امتلك قوة تفرض واقعاً، ثم تمر السنون، وتحكم التجربة العملية على الجميع، أيهم كان مصيباً، وأيهم كان مخطئاً.

والحق الذي لا مراء فيه أن الحضارة الإسلامية هي الأحق بالهيمنة، هذه الأحقية

---

١ – انظر كتاب نقد الليبرالية للدكتور الطيب بو عزة (ص: ١ ، ٤١) الطبعة الأولى دار المعارف الحكمية ونقد يورغن هابرماس لليبرالية الغربية رسالة ماجستير من إعداد بوخدنة سناء الجزائر كلية العلوم الإنسانية قسم الفلسفة.

لها حيثيات إنسانية حضارية، فضلاً عن حيثيات يعتقدها المسلم، نعرض هذه الحيثيات مختصرة في الكلمات الآتية[1].

من تقريرات الوحي قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ۖ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ ۚ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۖ فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾(المائدة:٤٨)[2]، الآية الكريمة تقرر هيمنة المنهج القرآني على غيره من الكتب المنزلة قبله هيمنة ترتكز على أسس نذكرها إجمالاً- على قدر فهمنا للآية-:

الأول: استيعاب المنهج القرآني للوحي السابق عليه، فشرع من قبلنا شرع لنا ما لم يرد في شرعنا ما يخالفه، ثم إن القرآن جاء بزيادات تناسب خاتمية الرسالة، وعالمية الإسلام ومستجدات العصر ومستحدثات الأمور فهو منهج يقدم نسقاً متكاملاً عقيدة وشريعة

---

١ - للتوسع والمزيد راجع الجزء الثاني من كتابي الأسماء الحسنى دراسة نسقية في الإيمان والحضارة شرح اسم الله المهيمن.

٢ - جاء في تفسير الماوردي:﴿وَمُهَيْمِناً عَلَيْهِ﴾ فيه ثلاثة تأويلات: أحدها: يعني أميناً، وهو قول ابن عباس. والثاني: يعني شاهداً عليه، وهو قول قتادة، والسدي. والثالث: حفيظاً عليه. ﴿فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمآ أَنزَلَ اللَّهُ﴾ هذا يدل على وجوب الحكم بين أهل الكتاب إذا تحاكموا إلينا، وألا نحكم بينهم بتوراتهم ولا بإنجيلهم. ﴿وَلاَ تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ﴾ فيهم قولان: أحدهما: أنهم أمة نبينا محمد ﷺ. والثاني: أمم جميع الأنبياء. ﴿شِرْعَةً وَمِنْهَاجاً﴾ أما الشرعة فهي الشريعة وهي الطريقة الظاهرة، وكل ما شرعت فيه من شيء فهو شريعة ومن قيل لشريعة الماء شريعة لأنها أظهر طرقه إليه، ومنه قولهم: أُشْرِعَت الأسنة إذا ظهرت. وأما المنهاج فهو الطريق الواضح، يقال طريق نهج ومنهج، قال الزاجر: مَن يَكُ ذَا شَكٍّ فهذَا فَلْجُ مَاءٌ رُوَاءٌ وطريقٌ نَهْجُ

فيكون معنى قوله شرعة ومنهاجاً أي سبيلاً وسنة، وهذا قول ابن عباس، والحسن، ومجاهد، وقتادة. "وَلَوْ شاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدةً" فيه قولان: أحدهما: لجعلكم على ملة واحدة. الثاني: لجمعكم على الحق، وهذا قول الحسن. انظر تفسير الماوردي النكت والعيون (٢/ ٥٤).

وسلوكاً، ثم إنه منهج محوظ بحفظ الله له.

الثاني: تميز بأنه منهج يجمع بين الثبات والمرونة في آن واحد فالثبات تجده في العقائد والأخلاق والعبادات والأصول الكبرى والمرونة تجدها في الأحكام الجزئية لذلك جاء الفقه الإسلامي متسماً بالتجديد والاجتهاد والإبداع بما يحقق مصلحة الناس ولا يخالف الأصول والأمثلة على ذلك كثيرة منها أن الإسلام حدد الصفات التي يجب توافرها في الحاكم المسلم لكنه لم يحدد طريقة اختياره فالثابت أن يكون الحاكم المسلم موصوفاً بالعلم والقوة والعدالة والخلو من العيب المانع أما طريقة اختياره فمتروكة لأهل الزمان والمكان يحددونها بما يناسب زمانهم ومكانهم.

والثالث: أنه منهج إلهي منزل بالحق فجاء بريئاً من الباطل منزهاً عن عمى الهوى وحبسة الظرف وغفلة الجهل وشره الطمع وضيق القومية فمصدر المنهج إله غني لا تدفعه رغبة ولا تذله حاجة وهو إله حليم لا يستفزه غضبه والغضب قطعة من الجنون وهو إله حكيم يُحكم الأشياء بوضعها في مواضعها وهو إله عليم يعلم الحال والمآل.

والرابع: أنه منهج إنساني المنزع فهو ينظم حياة المؤمنين به، وينظم علاقتهم بغير المؤمنين به، ويحفظ للجميع حقوقهم، فهو ينظر إلى الاختلاف البشري باعتباره سنة إلهية، وينظر للإنسان على أنه صنعة الله، لها حرمتها بصرف النظر عن الدين، أو العرق، أو اللون، فلا يجوّز الظلم على أحد. إن القرآن كما يضع حدوداً فاصلة ينماز بها الإسلام عن غيره من الأديان فإنه، ويقرر أن الإسلام هو دين الحق وغيره باطل، – في الوقت ذاته – يبني جسور التواصل مع المخالف وكما يوضح بدقة أفضلية، وخصوصية المؤمنين به يوضح – كذلك – المشترك الإنساني الذي يمكّن المختلفين عقدياً من العيش الكريم، وكما يؤكد على مركزية الحفاظ على النظام العقدي العام للأمة فلا يُمس، فإنه يقرر أنه لا إكراه

في الدين، وأن المختلفين في الدين يمكنهم العيش في أمة واحدة مع المسلمين، للمسلمين دينهم، وللآخرين دينهم، إنه يرضى بوجود الطوائف انطلاقاً من أن الاختلاف سنة الله في خلقه لكنه يحارب الطائفية، والعنصرية التي تحطم الاجتماع الإنساني، والشواهد على ذلك كثيرة منها وثيقة المدينة التي وضعها النبي ﷺ لتنظيم الحياة بين المسلمين واليهود في يثرب حال السلم والحرب ومما جاء فيها: "وَإِنَّ الْمُؤْمِنِينَ بَعْضُهُمْ مَوَالِي بَعْضٍ دُونَ النَّاسِ، وَإِنَّهُ مَنْ تَبِعَنَا مِنْ يَهُودَ فَإِنَّ لَهُ النَّصْرَ وَالْأُسْوَةَ، غَيْرَ مَظْلُومِينَ وَلَا مُتَنَاصَرِينَ عَلَيْهِمْ ..... وَإِنَّ الْيَهُودَ يُنْفِقُونَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ مَا دَامُوا مُحَارَبِينَ، وَإِنَّ يهودَ بَنِي عَوْف أُمَّةٌ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ، لِلْيَهُودِ دِينُهُمْ، وَلِلْمُسْلِمِينَ دِينُهُمْ مَوَالِيهِمْ وَأَنْفُسُهُمْ، إِلَّا مَنْ ظَلَم وأثِم، فَإِنَّهُ لَا يُوتغ[1] إِلَّا نفسَه، وأهلَ بَيْتِه[2]".

الخامس: استهداف الخير والمسابقة إليه فقيمة الإنسان محددة بقدر ما يحمل في قلبه من الإيمان الصادق وبقدر ما يصدر عنه من عمل صالح يشرق به على الناس وبقدر الأثر الطيب الذي يتركه في حياة الآخرين، فالمسلم لا يعيش لنفسه فقط!.

والسادس: أن الله أرسل الرسل بوحي فيه منهج كاشف وضابط، إنه كاشف لطبيعة الكون، والناس، إذا أخذ الإنسان بهذا الكشف وسار على نهجه عاش رخيّ النفس صالح البال، وإذا انحرف عنه ظهر الفساد في البر، والبر بسبب انحرافه، ثم إن هذا المنهج ضابط للعلاقة بين الإنسان، والكون من جهة، وبين الإنسان والإنسان من جهة أخرى، فالله لم يترك الإنسان سدى هملاً بغير نظام، فكل مخلوق مدفوع بفطرته إلى استبقاء حياته بتحصيل طعامه واستمرار نسله ودفع ما يهدده، وبالعقل يستطيع أن يتعلم ويحفظ ويفهم ويحلل ويركب ويبدع ويسيطر ويتحضر، وبالوحي الذي أنزله على رسله يُصَيّن فطرته

---

١ - يهلك.

٢ - انظرها تامة في سيرة ابن هشام ت السقا (١/ ٢٠٥) وما بعدها.

إذا تشوهت ويوجه العقل إذا اغتر ويضبط الفكر إذا انحرف.

السابع: تكريم الإنسان، ولأن اللغة تسبق الفكر والواقع فلابد أن نحرر مفهومنا للإنسان والكرامة، أما الإنسان فمخلوق خلقه الله خلقاً مخصوصاً، ومقصوداً، ومهدفاً، وليس مادة تحكمه قوانين الكيمياء، وليس حيواناً تحكمه قوانين الغابة، وليس سلعة تتحكم فيه اقتصاديات السوق. وأما الكرامة فعزة في النفس، وشرف في الخُلق، وعلو في القدر، وهي من زينة الحياة[1] وعزة النفس تأبى على صاحبها أن يهين نفسه، وشرف الخُلق يأبى على صاحبه أن يهين غيره، فإذا انتفى الذل عنك، وغابت الإهانة عن غيرك، علا قدرك، وازدانت الحياة.

١ - جاء في مقاييس اللغة (٥/ ١٧١) (كَرَمَ) الْكَافُ وَالرَّاءُ وَالْمِيمُ أَصْلٌ صَحِيحٌ لَهُ بَابَانِ: أَحَدُهُمَا شَرَفٌ فِي الشَّيْءِ فِي نَفْسِهِ أَوْ شَرَفٌ فِي خُلُقٍ مِنَ الْأَخْلَاقِ. يُقَالُ رَجُلٌ كَرِيمٌ، وَفَرَسٌ كَرِيمٌ، وَنَبَاتٌ كَرِيمٌ. وَأَكْرَمَ الرَّجُلُ، إِذَا أَتَى بِأَوْلَادٍ كِرَامٍ. وَاسْتَكْرَمَ: اتَّخَذَ عِلْقًا كَرِيمًا. وَكَرُمَ السَّحَابُ: أَتَى بِالْغَيْثِ. وَأَرْضٌ مَكْرُمَةٌ لِلنَّبَاتِ، إِذَا كَانَتْ جَيِّدَةَ النَّبَاتِ. وَالْكَرَمُ فِي الْخُلُقِ يُقَالُ هُوَ الصَّفْحُ عَنْ ذَنْبِ الْمُذْنِبِ. قَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مُسْلِمِ بْنِ قُتَيْبَةَ: الْكَرِيمُ: الصَّفُوحُ. وَاللَّهُ تَعَالَى هُوَ الْكَرِيمُ الصَّفُوحُ عَنْ ذُنُوبِ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ.
وَالْأَصْلُ الْآخَرُ الْكَرْمُ، وَهِيَ الْقِلَادَةُ. وَأَمَّا الْكَرْمُ فَالْعِنَبُ أَيْضًا لِأَنَّهُ مُجْتَمَعُ الشُّعَبِ مَنْظُومُ الْحَبِّ.

خطة عمل[1]

فإذا أردنا أن نخرج من الكلام النظري إلى خطة عمل ملموسة على الأرض نستهدف من خلالها استعادة الوعي بالهُويّة الإسلامية، وتحصين العقل المسلم من الاستلاب الفكري لإقامة دولة تقوم حقاً على منهاج الإسلام فلابد أن نمر بثلاثة مراحل هي نفسها المراحل التي قام النبي ﷺ ليبني دولة الإسلام هذه المراحل هي:

- مرحلة التربية الفردية .
- مرحلة التربية المجتمعية .
- مرحلة بناء مؤسسات الدولة على القيم التي تربى عليه المجتمع .

و لابد من كلمة مختصرة عن كل مرحلة.

أولاً: التربية الفردية:

هي مرحلة التأسيس العقدي واصطناع الرجال، وهي مرحلة تقوم على اصطفاء النخب المؤسسة، و هم فئة في الأمة كعجب الذنب في جسم الإنسان، قد تتآكل أشياء كثيرة في الأمة ويبقى الرجال المصطفون المؤسسون عقدياً، بهم يُحفظ الدين، وتنتشر الدعوة، وتحيا النفوس، فهم بذور البقاء، وحائط الصد، قال تعالى: في معرض المن على سيدنا موسى – عليه السلام –: ﴿وَٱصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِى﴾ (طه:٤١). طه. إن حوادث

١ – انظر كتابي المأمون بن هارون الرشيد الفصل الأول عنوانه مراحل التاريخ الإسلامي ففيه توسع مفيد في هذه القضية، وتقسيم جديد للتاريخ الإسلامي.

التاريخ البشري عامة، وسير الأنبياء، وكل أصحاب الدعوات الكبرى، وكل بناة الدول كانـوا حريصين على اصطناع رجال يؤمنون بدعوتهـم، ويعتقدون أفكارهم، ويضحون لأجل هدفهم، وهم لا يحرصون على هذا الاصطناع إلا لعلمهم بأن العقائد تظل حبيسة القلوب، وأن الأفكار تظل كلاماً لا فاعلية له إلى أن يحملها رجال يغيرون بها الواقع.

والـذي نعنيه حين نقول: "اصطناع الرجال" هو إعداد جيل بالتربية اللازمة لتحقيق الهدف المطلوب، أما التأسـيس العقدي في الإسلام فنعني به عَقد قلب المتربي على تعاليم الوحيين، ويتحقق ذلك التأسيس حين يؤمن المتربي إيماناً راسخاً بإلهية الوحي، وهيمنته، وعصمتـه، وحاكميتـه في كل تفاصيل حياته، والفخر بالانتسـاب إليـه، ودعوة غيره إلى الإيـمان به، والبذل لتفعيله وإنفاذه، وأن يفعل ذلك كله تعبداً واحتسـاباً، كل هذا يكون محوطاً بتعظيم شأن الآخرة، وتهوين نعيم الدنيا وشقائها.

وهـذه المرحلـة تقـوم على أساسـين كبيريـن: الهـدم والبناء، هـدم الأفكار الفاسـدة بتفكيكها، ونقدها ثم نقضها، وهذا يكون متزامناً مع بناء العقيدة السليمة التي تحل محل ما انهدم من الأفكار الفاسـدة وهذا بالضبط مـا حدث في بدء نزول الوحي حيث هاجم القرآن بشـدة العقائد الفاسـدة وما انبثق عنها من أخلاق فاسـدة تهـدم المجتمع وغرس مكانها العقيدة السليمة، وما يتولد عنها من أخلاق راقية، وتعاملات مستقيمة، وهذا ما وعاه، وتربى عليه سـيدنا جعفر بن أبي طالب – ﷺ – حين وقف أمام النجاشي يوضح لـه حقيقة الإسـلام إجابة عن سـؤاله يقـول النجاشي :" مَا هَـذَا الدِّينُ الَّـذِي فَارَقْتُمْ فِيهِ قَوْمَكُـمْ، وَلَمْ تَدْخُلُـوا فِي دِينِـي وَلا فِي دِيـنِ أَحَدٍ مِـنْ هَذِهِ الأُمَمِ؟ " فأجابـه جعفر قائلاً : "أَيُّهَـا الْمَلِكُ، كُنَّا قَوْمًا أَهْـلَ جَاهِلِيَّةٍ نَعْبُدُ الأَصْنَامَ، وَنَأْكُلُ الْمَيْتَةَ وَنَـأْتِي الْفَوَاحِشَ، وَنَقْطَعُ الأَرْحَـامَ، وَنُـسِيءُ الْجِوَارَ يَأْكُلُ الْقَوِيُّ مِنَّـا الضَّعِيفَ، فَكُنَّا عَلَى ذَلِكَ حَتَّـى بَعَثَ اللهُ إِلَيْنَا رَسُـولًا مِنَّـا نَعْرِفُ نَسَبَهُ، وَصِدْقَـهُ، وَأَمَانَتَهُ، وَعَفَافَـهُ، فَدَعَانَا إِلَى اللهِ لِنُوَحِّـدَهُ، وَنَعْبُدَهُ،

وَنَخْلَعَ مَا كُنَّا نَعْبُدُ نَحْنُ وَآبَاؤُنَا مِنْ دُونِهِ مِنَ الحِجَارَةِ وَالْأَوْثَانِ، وَأَمَرَنَا بِصِدْقِ الْحَدِيثِ، وَأَدَاءِ الْأَمَانَةِ، وَصِلَةِ الرَّحِمِ، وَحُسْنِ الْجِوَارِ، وَالْكَفِّ عَنِ الْمَحَارِمِ، وَالدِّمَاءِ، وَنَهَانَا عَنِ الْفَوَاحِشِ، وَقَوْلِ الزُّورِ، وَأَكْلِ مَالَ الْيَتِيمِ، وَقَذْفِ الْمُحْصَنَةِ، وَأَمَرَنَا أَنْ نَعْبُدَ اللهَ وَحْدَهُ لَا نُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا، وَأَمَرَنَا بِالصَّلَاةِ، وَالزَّكَاةِ، وَالصِّيَامِ"، قَالَ: فَعَدَّدَ عَلَيْهِ أُمُورَ الْإِسْلَامِ، فَصَدَّقْنَاهُ وَآمَنَّا بِهِ وَاتَّبَعْنَاهُ عَلَى مَا جَاءَ بِهِ، فَعَبَدْنَا اللهَ وَحْدَهُ، فَلَمْ نُشْرِكْ بِهِ شَيْئًا، وَحَرَّمْنَا مَا حَرَّمَ عَلَيْنَا، وَأَحْلَلْنَا مَا أَحَلَّ لَنَا....."[1].

و يمثل هذه المرحلة في سيرة النبيﷺ ما كان في دار الأرقم بن أبي الأرقم[2] حيث أصبحت داره رضي الله عنه مركزاً للدعوة السرية، يتجمع فيه المسلمون، ويتلقون عن رسول اللهﷺ كل جديد من الوحي، ويتربون على يديه ﷺ .

ثانياً: تربية المجتمع.

والمستهدف في هذه المرحلة أن تقوم الفئة التي حصّلت قدراً كافياً من العلم والفهم والتربية بتأسيس رأي جماهيري عام على وعي حقيقي وفهم كامل بحقيقة الإسلام

---

١ – رواه أحمد قال الهيثمي في مجمع الزوائد ومنبع الفوائد رجاله رجال الصحيح غَيْرَ إِسْحَاقَ، وَقَدْ صَرَّحَ بِالسَّمَاعِ. وصححه الألباني في فقه السيرة ص ٥١١.

٢ – جاء في الاستيعاب في معرفة الأصحاب (١/ ١٣١)

أرقم بن أبي الأرقم،

واسم أبي الأرقم عَبْد مناف بن أسد بن عَبْد الله بن عمر بن مخزوم بن يقظة بن مرة بن كعب بن لؤي القرشي المخزومي. وأمه من بني سهم بن عمرو بن هصيص، اسمها أميمة بنت عَبْد الحارث. ويقال: بل اسمها تماضر بنت حذيم من بني سهم. يكنى أبا عَبْد الله، كان من المهاجرين الأولين قديم الإسلام. قيل: أنه كان سبع الإسلام سابع سبعة. وقيل أسلم بعد عشرة أنفس.

وذكره موسى بن عقبة وابن إسحاق فيمن شهد بدرا، وفي دار الأرقم ابن أبي الأرقم هذا كان النبي صَلَّى اللَّهُ عليه وآله سلم مستخفيًا من قريش بمكة يدعو الناس فيها إلى الإسلام في أول الإسلام حتى خرج عنها، وكانت داره بمكة على الصفا فأسلم فيها جماعة كثيرة، وهو صاحب حلف الفضول.

الشاملة باعتباره الحل الحقيقي للأزمة التي يعيشها الفرد المسلم والأمة الإسلامية وتقوية إيمانه ويقينه بأن مصالحه المادية والمعنوية، الدنيوية والأخروية واستقراره وحريته وعدله، ورسالته كأمة حضارية، وحركته التاريخية، وقدرته على التدافع، ونجاحه في الخروج من الفقر والجهل والتخلف والاستعباد إلى الاستقلال الحقيقي تتحدد وتتلخص بشكل حاسم ونهائي في الأخذ بهذا الدين في كل مناحي الحياة فالإسلام هو الدين الذي رضيه رب العباد للعباد، بما فيه من عقائد وعبادات وتشريعات ومعاملات فمن أخذ ببعضه و ترك بعضه فقد تشبه بالمشركين الذين اخذوا القرآن عضين قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ جَعَلُواْ ٱلْقُرْءَانَ عِضِينَ﴾ (الحجر: ٩١) قال ابن عباس ﷺ: «هُمْ أَهْلُ الْكِتَابِ جَزَّؤوهُ أَجْزَاءً، فَآمَنُوا بِبَعْضِهِ، وَكَفَرُوا بِبَعْضِهِ».

ويمثل هذه المرحلة من سيرة النبي ﷺ ما كان من شأن البيعتين: بيعة العقبة الأولى و الثانية و إرسال سيدنا مصعب بن عمير ﷺ و معه المؤمنون من أهل المدينة يجهزون المجتمع اليثربي لهجرة النبي ﷺ وبناء الدولة فلما تيقن مصعب من استعداد أهل المدينة لحمل هم هذا الدين أرسل إلى النبي ﷺ يخبره بما يرى فهاجر النبي – سلى الله عليه و سلم – وبدأ ظهور الأمة الإسلامية ولم يعرف التاريخ موقفاً تخاذل فيه الأنصار عن نصرة الإسلام أو مجد ندموا على التضحية في سبيله بل بايعوه على قتال الأحمر والأسود وتأمل ما قاله سيدنا سعد بن – معاذ ﷺ – حين أراد الرسول ﷺ معرفة موقفهم يوم بدر فهم الغالبية في الجيش فقال سعد: يا رسول الله قد آمنّا بك وصدّقناك، وشهدنا أنّ ما جئت به هو الحق، وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا، على السّمع والطاعة، فامض لما أردت، ولعلك يا رسول الله تخشى أن تكون الأنصار ترى عليها ألّا ينصروك إلا في ديارهم، وإني أقول عن الأنصار وأجيب عنهم، فاظعن حيث شئت، وصل حبل من شئت، واقطع حبل من شئت، وخذ من أموالنا ما شئت، وأعطنا ما شئت، وما

أخـذت منّـا كان أحـبّ إلينا مما تركت، وما أمـرت فيه من أمر فأمرنا تبـع لأمرك، فو الله لئـن سرت حتـى تبلغ البرك من غمـدان- وفي رواية: برك الغماد من ذي يمن- لنسـيرنّ معـك، والله لو اسـتعرضت بنا هذا البحر لخضناه معك، ما تخلّـف منا رجل واحد، وما نكره أن نلقي عدوّنا غدا، إنّا لصبر في الحرب، صدق في اللّقاء، لعلّ الله يريك منّا ما تقرّبه عينك، ولعلك خرجت لأمر فأحدث الله غيره، فسر بنا على بركة الله، فنحن عن يمينك وشـمالك، وبين يديـك وخلفك، ولا نكوننّ كالذين قالوا لموسـى: فَاذْهَـب أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِـلا إِنَّا هاهُنا قاعِدُونَ ولكـن اذهب أنت وربّك فقاتلا إنا معكما متّبعون فأشرق وجه رسـول الله ﷺ، وسرّ بقول سعد .فقال رسـول الله ﷺ: «سيروا على بركة الله، وأبشروا، فإن الله تعالى وعدني إحدى الطائفتين، والله لكأني الآن أنظر إلى مصارع القوم».

ثالثاً: بناء الدولة، وترسيخ أسسها.

يؤسـس لهذه المرحلة قول النبي ﷺ: "مَنْ يُؤْوِينِي، مَنْ يَنْصُرُنِي، حَتَّى أُبَلِّغَ رِسَـالَاتِ رَبِّي فَلَهُ الْجَنَّةُ؟"، ذكر سـيدنا جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ الْأَنْصَارِيِّ، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ لَبِثَ عَشْرَ سِـنِينَ يَتْبَـعُ النَّـاسَ فِي مَنَازِلِهِمْ فِي الْمَوْسِـمِ وَمَجَنَّةَ وَعُـكَاظٍ وَمَنَازِلِهِـمْ مِنْ مِنًى «مَـنْ يُؤْوِينِي، مَنْ يَنْـصُرُنِي، حَتَّـى أُبَلِّـغَ رِسَـالَاتِ رَبِّي فَلَهُ الْجَنَّـةُ؟[1]». وقد تأكد أن مكـة وإن كانت منبت الرجال الأوائل فلن تكون البيئة الحاضنة للدولة الناشئة.

وتبدأ هذه المرحلة عملياً من السنة العاشرة من البعثة، أو بتعبير آخر أولها رحلة الطائف حيـث البحث عن أرض غير أرض مكة، وبعدما فشـل أهـل الطائف أن يكونوا حاضنة للإسلام لم يطل الوقت حتى التقى النبي ﷺ في نفس العام بجماعة من أهل يثرب وكانت الخطوة الأولى في تعرف أهل يثرب الإسلام وبدء انتشار دعوته فيها، ثم بناء دولته على أرضها.

---

١ -

يقول المقريزي: ثم إن رسول اللَّه ﷺ لقي عند العقبة من منى في الموسم ستة نفر، كلهم من الخزرج، وهم يحلقون رءوسهم، فجلس إليهم فدعاهم إلى اللَّه وقرأ عليهم القرآن، فقال بعضهم لبعض: "إنه النبي الّذي توعدكم به يهود فلا تسبقنّكم إليه"، فاستجابوا للَّه ولرسوله وآمنوا وصدّقوا، ثم كانت بيعة العقبة الأولى ثم البيعة الثانية ثم الهجرة[1].

ثم يترسخ مفهوم الدولة سياسياً واجتماعياً وعسكرياً، يتمثل هذا في قوله ﷺ الذي رواه البخاري في صحيحه من حديث سُلَيْمَانَ بْنَ صُرَدٍ، قال: سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ، يَقُولُ: حِينَ أَجْلَى الأَحْزَابَ عَنْهُ: «الآنَ نَغْزُوهُمْ وَلاَ يَغْزُونَنَا، نَحْنُ نَسِيرُ إِلَيْهِمْ[2]». قال النبي ﷺ قولته هذه بعدما رد الله كيد الأحزاب، وعادوا خائبين، وهي مقولة تفصل بين مرحلتين:

المرحلة الأولى مرحلة الدفاع، وهي مرحلة كان المسلمون فيها يقفون موقف المدافع عن نفسه – غالباً – في حين كان المشركون يأخذون بزمام المبادرة، والمبادأة، فهم الذين يأخذون قرار الحرب، كما حدث في بدر، وأحد، والأحزاب، وما بين هذه الغزوات الكبرى من غزوات صغرى وسرايا[3] أرسلها رسول الله ﷺ.

المرحلة الثانية مرحلة المبادأة، وهي مرحلة صار المسلمون فيها يمتلكون زمام المبادرة،

---

١ – إمتاع الأسماع (1/ 05).

٢ – صحيح البخاري (5/ 011) رقم (0114).

٣ –"وقد غزا النبي ﷺ غزوات عدة منها: غزوة الأبواء، ويقال لها "ودان"، ثم غزوة بواط، ثم غزوة سفوان، وهي بدر الأولى، ثم غزوة العشيرة، ثم غزوة بدر الكبرى، ثم غزوة بني سليم، ويقال لها: قرقرة الكدر، ثم غزوة السويق، ثم غزوة غطفان، وهي غزوة ذي أمر، ثم غزوة الفرع، ثم غزوة بني قينقاع، ثم غزوة أحد، ثم غزوة حمراء الأسد، ثم غزوة بني النضير، ثم غزوة بدر الأخيرة، وهي غزوة بدر الموعد، ثم غزوة دومة الجندل، ثم غزوة بني المصطلق وهي المريسيع، ثم غزوة الخندق ....." السيرة النبوية والدعوة في العهد المدني (ص: ٠٤٢)، المؤلف: أحمد أحمد غلوش، الناشر: مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة: الأولى ٤٢٤١هـ- ٤٠٠٢م، عدد الأجزاء: ١

فهـم الذيـن يأخذون القرار، والمشركـون يقفون في موقف رد الفعـل، وأول حدث أبرز ذلـك كان غـزوة الحديبية في شـهر ذي القعدة من العام السـادس للهجرة (مارس ٦٢٧ م)، وهو حدث كان المسلمون هم البادئون، وكان المشركون يرتبون أمورهم كرد فعل.

وإذا كانـت الحديبيـة هي الحدث البارز الذي غير نظرة الآخرين لمجموعة المسـلمين الناشـئة مـن كونهم مجموعـة من الأخـلاط المتحمسـين[1] إلى كونهم أمة قويـة لها وطن، وحدود، وقيادة، وسياسـة، وقرار، وتأثير، وقدرة على وضع عدوها التقليدي في موضع رد الفعل، فإن هذا الحدث قد سبقه ست خطوات كبيرة متتالية أدت إليه، هذه الخطوات هي التي أسست لظهور المسلمين كأمة وليست مجرد أفراد، هذه الخطوات هي:

١. بناء المسجد.

٢. المؤاخاة بين المهاجرين، والأنصار.

٣. عهد مواطنة لأهل المدينة.

٤. تشريعات ضبطت المجتمع المسلم الناشئ.

٥. كشف المنافقين.

٦. حصار قريش اقتصادياً.

---

١ - جاء في دلائل النبوة للبيهقي مخرجا (4/ 301): قال سهيل بن عمرو: فَوَالله إِنِّي لَأَرَى وُجُوهًا وَأَرَى أَوْشَابًا مِنَ النَّاسِ خُلَقَاءَ أَنْ يَفِرُّوا وَيَدَعُوكَ فَقَالَ لَهُ أَبُو بَكْرٍ ﷺ: امْصُصْ بَظْرَ اللَّاتِ، أَنَحْنُ نَفِرُّ عَنْهُ وَنَدَعُهُ؟

جاء في معجم العين (٦/ ١٩٢): شوب: شاب الشَّراب يشوبه، إذا خلطه بماءٍ، والشَّوبُ: الخلط. وشب: الأوشابُ من النّاس: الأخلاط، الواحدُ: وشبٌ. والوشبُ: شبيهٌ بالأشابة، يقال: رجلٌ من أوشاب الناس.

منذ اتخاذ النبي ﷺ وأصحابه المدينة وطناً لهم بنى المسجد الذي هو مؤسسة الأمن القومي الأولى في الإسلام؛ فهو مكان التعبد، ومحضن التربية، ومجلس الحرب، مقعد المشورة، وفيه وتُعقد الاجتماعات، وتُفض المنازعات.

ثم كانت المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار، وهي مؤاخاة تقوم على قاعدة الإيمان التي اتسعت بالرضا، والإخلاص، والتضحية، إنها مؤاخاة إيمانية رحيبة لا عصبية قبلية ضيقة، فبلال الحبشي، وصهيب الرومي كلاهما أخ لأبي بكر القرشي، وسعد بن معاذ الأوسي، وهي بذلك مؤاخاة تهدم الفكر القبلي الضيق؛ لتفسح الطريق لبناء أمة مهيمنة تريد أن تضم العالم كله إليها، وتمكن لدينها في قلوب الناس، وتبني حضارة إنسانية تعيد للإنسان كرامته.

ثم كان عهد المواطنة أو عهد الموادعة كما يسميه كتّاب السير[1]، وهو العهد الذي أبرمه الرسول ﷺ بين سكان المدينة: المسلمين، وغير المسلمين، وهو عهد أراد به النبي ﷺ أن يجعل المدينة وطناً لكل من يعيش عليها بصرف النظر عن دينه، أو قبيلته، فالكل يعيش فيها آمناً على دينه، ونفسه، وولده، وماله، والكل مسئول عن حمايتها، فالعهد فيه تنظيم للحياة الدينية، والاجتماعية، والمالية، والعسكرية، ومن بنوده:

وَإِنّ الْمُؤْمِنِينَ الْمُتّقِينَ عَلَى مَنْ بَغَى مِنْهُمْ، أَوْ ابْتَغَى دَسِيعَةَ ظُلْم، أَوْ إِثْم، أَوْ عُدْوَانٍ، أَوْ فَسَادٍ بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ؛ وَإِنّ أَيْدِيَهُمْ عَلَيْهِ جَمِيعًا، وَلَوْ كَانَ وَلَدَ أَحَدِهِمْ.

وَإِنّهُ مَنْ تَبِعَنَا مِنْ يَهُودَ فَإِنّ لَهُ النّصْرَ وَالْأُسْوَةَ، غَيْرَ مَظْلُومِينَ وَلَا مُتَنَاصَرِينَ عَلَيْهِمْ.

وإن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا مُحَارَبِينَ، وَإِنّ يَهُودَ بَنِي عَوْفٍ أُمّةٌ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ،

١ - قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: وَكَتَبَ رَسُولُ اللَّهِ -ﷺ- كِتَابًا بَيْنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ، وَادَعَ فِيهِ يَهُودَ وَعَاهَدَهُمْ، وأقرَّهم عَلَى دِينِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ، وَشَرَطَ لَهُمْ، وَاشْتَرَطَ عَلَيْهِمْ. سيرة ابن هشام ت طه عبد الرؤوف سعد (2/ 601).

لِلْيَهُودِ دِينُهُمْ، وَلِلْمُسْلِمِينَ دِينُهُمْ، مَوَالِيهِمْ وَأَنْفُسُهُمْ، إِلَّا مَنْ ظَلَمَ وَأَثِمَ، فَإِنَّهُ لَا يُوتِغُ[1] إِلَّا نَفْسَهُ، وَأَهْلَ بَيْتِهِ.

وَإِنَّ يَثْرِبَ حَرَامٌ[2] جَوْفُهَا لِأَهْلِ هَذِهِ الصَّحِيفَةِ، وَإِنَّ الْجَارَ كَالنَّفْسِ غَيْرَ مُضَارٍّ وَلَا آثِمٍ، وَإِنَّهُ لَا تُجَارُ حُرْمَةٌ إِلَّا بِإِذْنِ أَهْلِهَا، وَإِنَّهُ مَا كَانَ بَيْنَ أَهْلِ هَذِهِ الصَّحِيفَةِ مِنْ حَدَثٍ أَوْ اشْتِجَارٍ يُخَافُ فَسَادُهُ، فَإِنَّ مَرَدَّهُ إِلَى اللهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَإِلَى محمد رَسُولِ اللهِ ﷺ[3].

ثم كان العام الثاني من الهجرة، وفيه أربعة تشريعات، وحدثٌ كبيرٌ غيّرَ موازين القوى في الجزيرة العربية، ففي العام الثاني الهجري فُرض الجهاد[4]، وحُولت القبلة، وفرضت الزكاة، وفُرض صوم رمضان، وأما الحدث الكبير فكان انتصار المسلمين في غزوة بدر الكبرى. إن تحويل القبلة، وانفصال المسلمين عن قبلة اليهود كان إعلاماً – لمن لا يعلم – أن المسلمين أمة لها شخصيتها ليست تابعة لأمة من الأمم، وإنما هم الأمة الوسط، والكل مأمور باتباعها، وكان فرض الزكاة تقويةً للجبهة الداخلية في المجتمع المسلم الذي يتراحم أبناؤه، ولا يضيع فقراؤه، وكان فرض الصيام مؤشراً على أنك أمام

١ – فَإِنَّهُ لَا يوتغ: أَي لَا يهْلك إِلَّا نَفسه. الفائق في غريب الحديث (2/ 62). المؤلف: أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد، الزمخشري جار الله (المتوفى: 835هـ). وجاء في تاج العروس (22/ 985): وقالَ ابنُ عَبّاد: الوَتَغُ: المَلامَةُ. وقالَ اللَّيثُ: الوَتَغُ: قِلَّةُ العَقْلِ في الكَلام.

٢ – والحرم هو ما لا يحل انتهاكه، فلا يقطع شجره ولا يقتل صيدها، فهذا البند يحدد حرم المدينة، ويضمن الأمن فيها، ويضع حداً للاضطرابات والمشاكل التي تهدد السلم والأمان.

٣ – سيرة ابن هشام ت طه عبد الرؤوف سعد (2/ 601).

٤ – في البداية كان يأمرهم بالكف والصفح عن المشركين، فلما قويت شوكتهم أذن لهم ولم يفرضه عليهم. قال تعالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾ (الحج: 93). ثم فرض عليهم قتال من يقاتلهم. قال تعالى: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ﴾ (البقرة: 091). ثم فُرض قتال المشركين كافة ﴿وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً﴾ (التوبة: 63). موجز التاريخ الإسلامي من عهد آدم إلى عصرنا الحاضر (ص: 17) المؤلف: أحمد معمور العسيري.

أمة يستطيع أبناؤها هزم شهواتهم، إذن أنت أمام أمة لها شخصيتها، مستعلية بعقيدتها، مجتمعها متماسك، أفرادها يغلبون شهواتهم، وأمة كهذه أمة مؤهلة لقبول فريضة الجهاد، وقادرة على أن تجعله من أدوات قوتها، وأسباب عزتها، وإن قل عددها، وهذا ما تجلّى في حروب المسلمين في قابل الأيام.

ثم جاء الحدث المركزي الذي كشف المنافقين، وجعلهم عراة تماماً أمام الجميع، إنه حديث الإفك، وهو ضمن أحداث غزوة بني المصطلق في العام السادس الهجري[1]، وأكبر سبب في اشتهار هذه الغزوة وقوع حديث الإفك فيها، ونزول القرآن يفضح المنافقين، ويبرئ السيدة عائشة – رضي الله عنها –.

وكان كشف المنافقين ضرورياً، فهم العدو الخفي المتواري بين المؤمنين، فهو في الظاهر يصلي في مساجدهم، ويصوم معهم، ويتلو القرآن مثلهم، ويخرج في صفوف قتالهم، إلا أنه يخطط للقضاء عليهم بالوسيلة الممكنة، وينتظر اللحظة المناسبة، فكانت غزوة بني المصطلق (المريسيع)، وأخطر ما في أحداثها أنها كشفت خبث المنافقين، وأساليبهم في هدم الكيانات، هذه الأساليب تتلخص في استخدام قدراتهم العقلية في تفكيك مفاصل الدولة، وتشويه رموزها، وتشكيك العوام في معتقداتهم، وهدم القيم التأسيسية التي قامت عليها دولتهم، معتمدين في ذلك على قدرتهم البيانية الإعلامية، واستغلال

١ – فَأَقَامَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِالْمَدِينَةِ بَعْضَ جُمَادَى الْآخِرَةِ وَرَجَبًا، ثُمَّ غَزَا بَنِي الْمُصْطَلِقِ مِنْ خُزَاعَةَ، فِي شَعْبَانَ سَنَةَ ستٍّ، وسَبَبُ غَزْوِ الرَّسُولِ لَهُم: قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: فَحَدَّثَنِي عَاصِمُ بْنُ عُمَرَ بْنِ قَتَادَةَ وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي بَكْرٍ، وَمُحَمَّدُ بْنُ يَحْيَى بْنِ حِبَّانَ، كُلٌّ قَدْ حَدَّثَنِي بَعْضَ حَدِيثِ بَنِي الْمُصْطَلِقِ، قَالُوا: بَلَغَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أَنَّ بَنِي الْمُصْطَلِقِ يَجْمَعُونَ لَهُ، وَقَائِدُهُمْ الْحَارِثُ بْنُ أَبِي ضِرَارٍ أَبُو جُوَيْرِيَةَ بِنْتِ الْحَارِثِ، زَوْجِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَلَمَّا سَمِعَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِهِمْ خَرَجَ إِلَيْهِمْ، حَتَّى لَقِيَهُمْ عَلَى مَاءٍ لَهُمْ يُقَالُ لَهُ: الْمُرَيْسِيعُ، مِنْ نَاحِيَةِ قَدِيدٍ إِلَى السَّاحِلِ، فَتَزَاحَفَ النَّاسُ وَاقْتَتَلُوا، فَهَزَمَ اللَّهُ بَنِي الْمُصْطَلِقِ، وَقُتِلَ مَنْ قُتِلَ مِنْهُمْ، وَنَفَّلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَبْنَاءَهُمْ وَنِسَاءَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ، فَأَفَاءَهُمْ عَلَيْهِ. سيرة ابن هشام ت السقا (2/ 982)

الحـوادث وتأويلها بحسـب أهدافهم، وسـذاجة بعض أهل الحق، فدورهم أشـبه بدور الإعلام المضلل في عصرنا، فهم يستغلون أدوات العمل السياسي بديلاً عن أدوات القتال.

وكان مـن أول مـا تنبه له المسـلمون حين هاجروا أن يغيروا نظـرة متكبري مكة لهم، فهم اليوم ليسـوا المسـتضعفين في أنحاء مكة، فبلال لن يطرحه أمية بن خلف مرة أخرى عـلى رمـال مكة الحامية، ولن يُكـوى خباب بن الأرت بنار أم أنـمار الخزاعية، ولن يُعلق الزبير من قدمه ويُطلق عليه الدخان ليرتد، ولن يُحبس خالد بن سعيد ويجوع مرة أخرى، ولن يُضرب أبو بكر عند الكعبة، ولن يتجرأ السفلة على رسول الله ﷺ، ولن يُحاصروا في شعاب مكة مرة أخرى، إنهم اليوم قوة قادرة على الفعل، والتأثير، والتهديد.

وأقوى ما يُشـعر متكبري مكة بالوضع الجديد أن تكون العضة في تجارتهم، ومكة لا تصنع ولا تزرع، وإنما هي تجارة في رحلتين، ولا رزق لأهل مكة إلا من هذا السبيل سبيل التجارة، فإذا أُغلق فالمصيبة كبيرة، وهذا ما قاله قائلهم: "إن محمدًا وصحبه عوروا علينا متجرنـا، فما ندري كيف نصنع بأصحابه؟"، بهذه المـرارة الطافحة، والضعف، والضغن يلخـص صفوان بن أمية قدرة المسـلمين على تهديد قريش اقتصادياً، وضعف القرشـيين أمـام هذا التهديد، قال ذلك حين جاء الصيـف، واختارته قريش لقيادة قافلتها التجارية إلى بلاد الشام (رحلة الصيف). هذا الحصار بدأ مبكراً منذ أن استقر المسلمون في المدينة، وكان سبباً مباشراً في غزوة بدر الكبرى.

وتقص كتب السيرة الموقف بأكمله، قال صفوان بن أمية لقريش- وهو الذي انتخبته قريـش في هذا العام لقيادة تجارتها إلى الشـام: إن محمـدا وصحبه عوروا علينا متجرنا، فما ندري كيف نصنع بأصحابه، وهم لا يبرحون الساحل؟ وأهل الساحل قد وادعهم ودخل عامتهم معه، فما ندري أين نسلك؟ وإن أقمنا في دارنا هذه أكلنا رؤوس أموالنا، فلم يكن

لها من بقاء. وإنما حياتنا بمكة على التجارة إلى الشام في الصيف، وإلى الحبشة في الشتاء.

ثم كانت الانطلاقة الكبرى بعد صلح الحديبية، لقد أوجد صلح الحديبية واقعاً جديداً، فالمسلمون صاروا أمة قادرة على الفعل، أمة لها قيادة، وعقيدة، وقوة، فقريش التي كانت تهدد هي الآن تتفاوض، وسفيرها يتلطف في الكلام[1]، وأعظم من ذلك أن الرسول ﷺ يرسل رسله إلى ملوك الأرض يدعوهم إلى الإسلام، إذن فهم أمة لهم رسالة عالمية، وتخطوا حدود المحلية.

وهذا الحدث ليس بالشيء الهين، إذا علمنا أن الإنسان العربي كان يعتبر الوقوف أمام ملوك الفرس، والروم – إن تحقق – مصدر عز وفخر، ومحمد بن عبد الله – اليوم – يراسلهم ويدعوهم لاتباعه، فبعث دحية الكلبى، إلى قيصر الروم، وبعث عبد الله بن حذافة السهمى إلى كسرى ملك الفرس، وبعث عمرو بن أمية الضمرى، إلى ملك الحبشة، وبعث حاطب بن أبى بلتعة اللخمى، إلى المقوقس صاحب مصر، وبعث عمرو بن العاص إلى جيفر وعياذ ابنى الجلندى الأزديين، ملكى عمان، وبعث سليط بن عمرو أحد بنى عامر بن لؤى، إلى هوذة بن على، الملك على اليمامة، وإلى ثمامة بن أثال، الحنفيين، وبعث العلاء بن الحضرمى إلى المنذر بن ساوى العبدى ملك البحرين، وبعث شجاع بن وهب الأسدى، من أسد خزيمة، إلى الحارث ابن أبى شمر الغسانى، وابن عمه جبلة بن الأيهم، ملكى البلقاء من عمل دمشق، وبعث المهاجر بن أبى أمية المخزومى، إلى الحارث بن عبد الملك الحميرى، أحد مقاولة اليمن، وبعث معاذ بن جبل إلى جملة اليمن، داعيا إلى الإسلام، فأسلم جميع ملوكهم.

---

١ – "قَالَ عُرْوَةُ وهو يفاوض النبي ﷺ: أَيْ مُحَمَّدُ، أَرَأَيْتَ إِنِ اسْتَأْصَلْتَ قَوْمَكَ هَلْ سَمِعْتَ بِأَحَدٍ مِنَ الْعَرَبِ اجْتَاحَ أَصْلَهُ قَبْلَكَ" دلائل النبوة للبيهقي (4/ 301).

وأسلم سائر الملوك الذين، وأسلم قومهم، حاشا قيصر والمقوقس وهوذة وكسرى والحارث بن أبى شمر ونجاشي الحبشة،، وتأخر إسلام ثمامة بن أثال، ثم أسلم مختارا بعد ذلك، وأما قيصر فهم بالإسلام، فغلبه قومه، فلم يسلم، وأما المقوقس فقارب، وهادى - رسول الله ﷺ-، مأبورًا وهو عبد مجبوب، والبغلة الشهباء، التى كانت تسمى الدُّلْدُلُ، وجاريتين: إحداهما مارية أم ولد رسول الله ﷺ، والأخرى أختها سيرين، وهبها رسول الله ﷺ لحسان بن ثابت فولدت له ابنه عبد الرحمن، فهو ابن خالة إبراهيم ابن رسول الله ﷺ. وأما البغلة فكان يركبها إلى أن مات، ثم كانت عند على بن أبى طالب إلى أن مات، قيل: ثم صارت عند عبد الله بن جعفر ابن أبى طالب، وكان يجش لها الشعير لطول عمرها، إلى أن نفقت أيام معاوية، وأما كسرى فكان أقبح القوم ردا، ومزق كتابه، فدعا عليه رسول الله ﷺ، فمزق الله ملكه أولا، ثم ملك الفرس جملة. وكان صلوات الله وسلامه عليه له رسل كثير إلى قبائل العرب[1].

١ - جوامع السيرة ط العلمية (ص: 42) بتصرف، المؤلف: أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الأندلسي القرطبي الظاهري (المتوفى: 654ه) الناشر: دار الكتب العلمية - بيروت.

الشعب

١. علاقة الشعب بالدولة.

٢. الشعب الوضيع حمل ثقيل على القائد العظيم .

٣. تصفية الشعب المتحمس بثلاث ابتلاءات :

• الابتلاء الأول تحطيم العوائد و ضبط الموازين .

• الابتلاء الثاني : تقديم شرع الله على شهوة النفس .

• الابتلاء الثالث : ابتلاء الصبر و اليقين فبهما تكون الإمامة في الدين .

• لماذا الابتلاءات ؟!

علاقة الشعب بالدولة.

نتوقف في هذه المطلب عند قوله تعالى : ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلْمَلَإِ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ....﴾ (البقرة:٢٤٦) و بالتحديد قوله تعالى ﴿بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ فهم هنا الشعب الغاضب المتحمس الذي يريد الجهاد ليبني دولة قوية على منهاج النبوة بقيادة مؤيدة بالوحي .

تجربة التاريخ شاهدة على أن استضعاف الشعوب – غالباً – ما يولد فيها تيارين شعبيين متناقضين في الشعوب المستضعفة التيار الأول يستسلم لمن استضعفه وقهره وأذله ويرضى بالعيش يأكل و يشرب و يرى أنه ليس في الإمكان أفضل مما كان و التيار الثاني يتولد بداخله نفور واستنكار وتحدٍ وإرادة حقيقية لتغيير الواقع الكئيب، إن مرحلة الاستضعاف كما تولد عند البعض الخنوع والخضوع تولد عند آخرين تحدياً يفجر الغضب عند البعض والمواهب عند البعض الآخر، وبين هذين التيارين قلة متقوقعة لا ترضى بالوضع القائم، ولا تسعى لتغييره، وإنما تعيش بالأمنيات، وتنفس عن مشاعرها بهمس الكلمات، وشارد الأحلام. ولنا مع الشعب محطات.

وللدولة ثلاثة أركان في الفكر السياسي المعاصر هي: الشعب والأرض والسلطة السياسية وأضاف الفقهاء المسلمون ركناً رابعاً وهو الحكم بما أنزل الله وهذا الركن المضاف نابع من تصور المسلمين للدولة بناء على فهمهم للدين الإسلامي العظيم.

والشعب هو العنصر البشري والركن الاول الذي تقوم عليه الأمة إذ يصعب تصور دولة بدون شعب . ويُعّرف سياسياً بأنه مجموعة من الافراد يقيمون فوق إقليم الدولة ويرتبطون بها برابطة سياسية وقانونية تعرف بالجنسية.

و البشر هم المخاطبون بدعوة الأنبياء فيرسل الله إليهم الأنبياء لهدايتهم هداية إرشاد ودلالة وقد أعطى الله الإنسان أدوات يستطيع بها استقبال وفهم ما يأتي به الرسل كما يستطيع بهذه الأشياء معرفة الطيب من الخبيث والصالح من الطالح ثم يختار بمحض إرادته ما يريد فعله وعلى أساس ذلك يحاسبه على أعماله فيجزي المحسن بالإحسان والمسيء بالحرمان هذه الأشياء هي الفطرة الإيمانية وواعظ الله في قلب كل مسلم فالله جعل الإيمان فطرة، فالإنسان بفطرته يعرف أن له رباً وهذه المعرفة مركوزة في أصل خلقته لا تستقر نفسه ولا يهدأ قلبه إلا إذا تعلق بربه ويظل كذلك ما لم يطرأ على فطرته طارئ يصيبها فتنحرف أو تنتكس قال الله في كتابه ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ۛ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ﴾ (الأعراف: ١٧٧) . وروى الشيخان من حديث أَبِي هُرَيْرَةَ – رضي الله عنه – قَالَ النَّبِيُّ ﷺ : " مَا مِنْ مَوْلُودٍ إِلاَّ يُولَدُ عَلَى الْفِطْرَةِ فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ أَوْ يُنَصِّرَانِهِ أَوْ يُمَجِّسَانِهِ كَمَا تَنْتَجُ الْبَهِيمَةُ بَهِيمَةً جَمْعَاءَ هَلْ تُحِسُّونَ فِيهَا مِنْ جَدْعَاءَ " . ثُمَّ يَقُولُ أَبُو هُرَيرَةَ رضي الله عنه: (فِطْرَةَ اللهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لاَ تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللهِ، ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ) .

و أعطاه وسائل الوعي و الإدراك فأعطاه حواس هي نوافذه على الكون من حوله و عقل يدرك من تنقله الحواس إليه و فؤاد يعقل و يقرر قال الله : ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۖ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ﴾ (الحج: ٤٦) . و قال تعالى ﴿إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا﴾(الإنسان: ٢). ﴿إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ (الإنسان:٣).

وأعطاه القدرة على الاختيار و القدرة على الاختيار مبنية على وسائل الوعي و الإدراك التي ذكرناها سابقاً فالإنسان يختار ما يريد بناءً على تفكير العقل القائم على ما أمده السمع و البصر و الفؤاد من معلومات و مشاعر .

وأعطاه الإرادة و إرادة الإنسان تابعة لاختياره فبعدما يختار ما يريد يتخذ القرار بفعل الشيء الذي يريده فتنفعل جوارحه لما يريد فيحدث الفعل الذي أراد، وهذا كله بتقدير العليم الحكيم القدير.

الشعب الوضيع حمل ثقيل على القائد العظيم .

يلفت نظرك و أنت تطالع قصة بني إسرائيل أن الله لم يمكّن لهم في عهد يسدنا موسى – عليه السلام – بالرغم من فضله ومكانته فهو نبي من أولي العزم الخمسة المقدمين على سائر الأنبياء وإنما حكم الله عليهم بتيه في أرض سيناء أذلهم الله به بل يموت موسى وهارون عليهما السلام في التيه ثم يأتي من بعد سيدنا موسى – عليه السلام – نبي آخر هو يوشع بن نون عليه السلام وعلى يديه يكون التمكين لبني إسرائيل و يقودهم لبناء دولة عظيمة كانت من أقوى الدول في تاريخهم هذا بالرغم من أن نبي الله يوشع – عليه السلام – أقل قدراً من نبي الله موسى – عليه السلام – فكيف نفسر ذلك و نفهمه ؟! و الإجابة بسيطة التمكين لا يأتي بصلاح القيادات فقط و إنما بأن يكون الشعب مستحقاً للتمكين .

إن الشعب الذي قاده موسى – عليه السلام – هو الشعب الذي عبد العجل و أقدامهم لا يزال عليها آثار الماء حين عبروا البحر ونجوا وأغرق الله فرعون إنه الشعب الذي قال لنبيه : ﴿فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾ (المائدة:٢٤). ولا يزال المن و السلوى في أفواههم ، إنه الشعب الذي عاش الذل والامتهان في حكم فرعون سنين طويلة ففسدت أفكارهم وفقدوا مواهبهم ونخوتهم فشكاهم موسى إلى الله تعالى فحرمها عليهم ﴿أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ﴾ (المائدة:٢٧). ولما فَنىَ هذا الجيل الفاسد، وانتهت عقوبة الحرمان ظهر في هذه المحنة جيل جديد بفهم و إيمان جديدين ،

ففتحها بذرياتهم نبي الله يوشُع – عليه السلام – إذن لم يكن العيب حين تأخر التمكين في القائد النبي وإنما العيب في الشعب .

كانت المعوقات التي في بني إسرائيل أكبر أثراً في التغيير من عظم إمكانات قيادة موسى وهارون – عليهما السلام – المؤيدين بالوحي بينما نهض وعي الفئة الجديدة، وإخلاصها لله، وإرادتها الجازمة، بإمكانات يوشع بن نون الأقل في العظمة مقارنةً بموسى وهارون – عليهما السلام –.

ومن ذلك: حالة النجاشي بعد إسلامه كان ملكاً يسِّير دولةً وفي يده مقاليد الحكم، ولكنه لم يستطع القيام بدور يتناسب مع حجم سلطاته؛ وذلك لأن قومه لم يكونوا مؤهلين لقبول هذا التغيير .. وقد يقول قائل: إن قومه كانوا نصارى لا يؤمنون بهذا الدين، ولكن هذا ليس محل تأثير في موضوعنا؛ فقوانين النهوض، والإرادة في حمل رسالة، والدفع بالسنن التي يتم بها التغيير .. لا تتبدل بمجرد تغير دين الأفراد، ونحن نبحث في العامل المؤثر في التغيير من خلال جدلية العلاقة بين القائد والأمة، ولكي يتضح هذا العامل أكثر نذكر نموذجاً لا يتطرق إليه احتمال هذا الاعتراض المذكور.

وتأمل ما سجله التاريخ الإسلامي في الفتنة التي وقعت بين المسلمين بعد مقتل الخليفة عثمان بن عفان – ﷺ – ، وأعني بذلك: المواجهة التي حصلت بين أهل العراق بقيادة سيدنا علي بن أبي طالب – ﷺ – وأهل الشام بقيادة سيدنا معاوية بن أبي سفيان – ﷺ – فسيدنا علي –ﷺ– لم يكن أقل إخلاصاً ولا كفاءةً ولا شجاعةً من سيدنا معاوية –ﷺ– ، بل كان أفضل منه وأسبق ، ولكن الفارق كان في الأتباع ؛ فقد شاع في غالب معسكر سيدنا علي – ﷺ – روح التفتيت والخروج من الصف والتطاول وعدم الطاعة ، فكانت حياته معهم محنةً شاقةً رغم ظهور رغبتهم في الاستقامة وطلبهم للإصلاح

بدعـوى الحـرص على الدين ، ولكن ذلك شـكَّل صورةً ونموذجاً للوعـي الزائف، بينما امتاز معسـكر معاوية بالانتظام والسـمع والطاعة، فصبت روافد جهودهم في نهر واحد جرى في نهاية الأمر لصالحهم، وهذا ما أشار إليه سيدنا علي بن أبي طالب - ﷺ - بقوله مخاطبـاً أتباعه : " وَإِنِّي وَاللَّهِ لَأَحْسَـبُ أَنَّ هَؤُلَاءِ الْقَوْمَ سَـيَظْهَرُونَ عَلَيْكُـمْ، وَمَا يَظْهَرُونَ عَلَيْكُـمْ إِلَّا بِعِصْيَانِكُـمْ إِمَامَكُـمْ وَطَاعَتِهِـمْ إِمَامَهُمْ، وخيانتكم وأمانتهم، وإفسـادكم في أرضكـم وإصلاحهم، قَدْ بَعَثْتُ فُلَانًا فَخَـانَ وَغَدَرَ، وَبَعَثْتُ فُلَانًا فَخَـانَ وَغَدَرَ، وَبَعَثَ الْمَـالَ إِلَى مُعَاوِيَـةَ لَوِ ائْتَمَنْتُ أَحَدَكُمْ عَلَى قَدَحٍ لَأَخَذَ عِلَاقَتَهُ، اللَّهمّ سَـئِمْتُهُمْ وَسَـئِمُونِي، وَكَرِهْتُهُـمْ وَكَرِهُونِي، اللَّهمّ فَأَرِحْهُمْ مِنِّـي وَأَرِحْنِي مِنْهُمْ» قَالَ: فَمَا صَلَّى الْجُمُعَةَ الْأُخْرَى حَتَّـى قُتِـلَ ﷺ وَأَرْضَـاهُ " ، وهكذا لم يغن القائد العظيم عن أتباعه غير المؤهلين شـيئاً في إحداث التغيير والتمكين[1] .

إن كل أمة تتمنى أن تكون ممكنة في الأرض لها حول وطول ولها مهابة ومكانة ولكن القـرآن يعلنهـا واضحة في أكثر من مرة أن الفلاح الإنسـاني مرهـون بتزكية النفس، وأن الخيبة والخسران نتيجة طبيعية لمن فرط في حق ربه قال تعالي ﴿وَٱلشَّمۡسِ وَضُحَىٰهَا ۝١ وَٱلۡقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا ۝٢ وَٱلنَّهَارِ إِذَا جَلَّىٰهَا ۝٣ وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰهَا ۝٤ وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا ۝٥ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا طَحَىٰهَا ۝٦ وَنَفۡسٖ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧ فَأَلۡهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقۡوَىٰهَا ۝٨ قَدۡ أَفۡلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدۡ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾ (الشمس:١-١٠) .

---

١ - انظر مجلة البيان (٥٥١/ ٤٨) مقال رؤية في مسيرة العمل الإسلامي ل خالد أبو الفتوح بتصرف . و انظر البداية والنهاية لابن كثير (٧/ ٥٢٣) .

تصفية الشعب المتحمس بثلاث ابتلاءات .

المتحمس بغير رصيد من عقيدة صافية تعصمه من البدعة و علم يضبط حركته و يبعده عن الانحراف و إخلاص يدفعه إلى التضحية لن يكون – أبداً – لبنة في بنيان دولة قوية لذلك كان من أبلغ العبر في هذه القصة أن نقف متأملين لفهم ما ابتلى الله به بني إسرائيل من ابتلاءات تصفي صفهم قبل لقاء عدوهم و بناء دولتهم و ابتلاهم الله بثلاث ابتلاءات رئيسة لكل ابتلاء ثمرة .

الابتلاء الأول تحطيم العوائد و ضبط الموازين .

عندما سعى الملأ لنبيهم يطلبون إليه أن ينصب لهم ملكاً فاختار نبيهم طالوت ملكاً فاستنكروا هذا الاختيار واستغربوه فهو اختيار على غير ما ألفوه فلم يكن طالوت من سبط يهوذا الذي منه الملوك ولا من سبط لاوى الذي فيه الأنبياءُ، وليس له من المال ما يرفعه إلى درجة الأشراف فهو فقير يعمل عملاً بسيطاً، ولهذا ضاقت نفوسهم به، فاعترضوا على تنصيبه ملكًا عليهم ونبيهم رد حيرتهم وشبهتهم بوحي من ربه فقال لهم: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِى ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِ﴾(البقرة:٢٤٧)، و كونه من اختيار الله يكفي عند أهل الإيمان الصادقين بغير أن تتبين لهم حيثيات اختياره لكن الله ذو رحمة و حلم و كرم فأوضح لهم أسباب الاختيار .

و نلمح في هذا الاختيار ثلاث ثمرات عظيمة :

الثمرة الأولى :كان الله قادراً أن يختار لهم نبياً على الطريق التي ألفوها فيأتي الملك من سبط يهوذا كما هو معتاد و ساعتها لن يكون لبني إسرائيل أدنى اعتراض و لعل من

حكمة الله في هذا أن الشعوب الضعيفة التي تسلط عليها عدوها زمناً طويلاً فأصابها الذل و الفقر و الجهل غالباً ما تتحجر عقول أبنائها و تفقد مرونتها فتعشق التقليد والاتباع وتراهما أمناً و تخاف التجديد والإبداع وتراهما خطراً لذلك كان من المناسب جداً اختيار طالوت المغمور الفقير ملكاً مهمته قيادة بني إسرائيل لهزم عدو جبار وبناء الدولة الجديدة وكان اختياره صدمة تُؤذن ببداية عصر جديد لا بد أن تتغير فيه أساليب التفكير و طرائق النظر للأمور[1] .

ولأن الناس يفكرون بطريقة واحدة فإن الأسلوب الذي فكرت به بنو إسرائيل هو نفس الأسلوب الذي فكر به مشركو الجزيرة العربية حين قالو – و سجل القرآن قولهم –: ﴿ وَقَالُواْ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴾(الزُّخرُف:٣١). وقوله تعالى: ﴿ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ ۗ قَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ مُّبِينٌ ﴾ (يونس:٢)، إن قرشاً و متكبري العرب استنكفوا واستكبروا أن يكونوا أتباعاً لنبي فقير نشأ يتيماً وظلوا يطلقون عليه

---

١ – كتبت بعد ثورة يناير مقال عنوانه شعب في الثلاجة . و هذا نصه .....

حادثتان هما الأخطر في حياة الأمم : ظهور الأنبياء و قيام الثورات و الصراع فيهما يكون على الأفكار و المعتقدات .

يدور هذا الصراع بين فريقين متناقضين الفريق الأول يعتنق الفكر القديم و يستميت في الدفاع عنه و غالباً ما يكون هؤلاء من كبار السن و أصحاب المصالح و الفريق الثاني يعتنق الفكر الجديد و ينشط لنشره و يضحي في سبيله و غالباً ما يكونون من أصحاب العقول الشابة المرنة الواعية .

درس التاريخ يقول : إن الغلبة محسومة لأصحاب العقول الشابة لما تتميز به من الوعي و الحماسة و المرونة و الاستعداد الدائم لمناقشة كل الأفكار و قبول الآخر و القدرة على مد جسور التواصل معه و القدرة على التعايش مع المخالف .

أما عوام الناس فهم أشبه شيء بقطعة اللحم المتجمد في ثلاجة شديدة التبريد مرت عليها السنون ذوات العدد فهي بين حالين إما أن الزمان الطويل أفسدها و أخرجها عن طبيعتها و إما أنها تحتاج إلى وقت طويل لكي ينصهر الثلج عنها لكنها و إن لم تفسد فإنها لن تعود إلى طبيعتها التي كانت .

و الخلاصة نحن نحتاج إلى جيل لم يدخل الثلاجة لكي يبني الدولة الجديدة .

يتيم عبد المطلب و يصممون أن يروه من هذا المنظور و لو نظروا إليه على أنه رجل اختاره رب العالمين و شرفه بنزول الوحي عليه لكان الأمر مختلفاً جداً و من طريف ما يذكر في هذا المقام أن رجلاً قال لآخر من رأى فلاناً الصالح يَهْده الله. فردَّ عليه السامع متسائلاً: كيف تقول ذلك؟! وقد رأى أبو جهل خيراً من منه، ومع ذلك ظل كافراً. فردَّ الرجل: إن أبا جهل لم يَرَ محمداً رسول الله ﷺ، ولكنه رأى يتيم أبي طالب ولو أن أبا جهل رأى محمداً ﷺ على أنه رسول لتغيَّر أمره.

الثمرة الثانية : هذا الابتلاء أنه يؤسس في النفوس الميزان العقدي الإيماني للاصطفاء وعدم الاستناد لموازين البشر التي قد تتحكم فيها الأهواء والعادات أو قصور العقل البشري المحدود بحدود الزمان والمكان .

وقد بينت الآية صفتين مهمتين للقائد: الأولى العلم، والثانية، القدرة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِى ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِ﴾ (البقرة:٢٤٧)فأول صفة من صفات القائد: العلم، والصفة الثانية: القدرة، ولا يستحق أن يكون قائداً ملكاً عليهم إلا إذا جمع بين العلم الذي به يخطط ليدبر شئون مملكته والقدرة التي بها ينفذ ما خطط له .

و لا شك عند كل ذي عقل و فهم أن علم الملك و قدرته أنفع للأمة من ماله فهما من الكمالات الذاتية الحقيقية التي لا تنفك عن صاحبها أما المال و الجاه فمن الأشياء المكتسبة و هي معرضة للزوال فكم من فقير اكتسب مالاً و كم من غني فقد ماله و أجهل الشعوب من ثقل في موازينهم الرجال لمجرد أن أغنياء أو أصحاب جاه فرفعوهم و قدموهم ثم لا تجد من وراء ماله و جاهه علماً و لا ديانة و لا خلقاً .

إننا في حاجة ماسة و نحن نريد أن نبني دولة ندخل بها عصراً إلى فقه هذا المبدأ عند اختيار من يحكمنا أو يمثلنا .

إن من أكبر أسباب أزمتنا في المرحلة الراهنة أننا نقدم أصحاب الولاءات على أصحاب الكفاءات و هذا هدر لمواهب الأمة و هدم لبنيان الدولة و تضييع للمجتمع و خيانة للأمانة و العجيب أن ترى من يفعل ذلك بتأويل شرعي يقنع نفسه به و قد رأينا أناساً من أهل الدعوة إلى الله نحسبهم مخلصين قد ولاهم الله ولايات صغيرة كانت أو كبيرة ثم قدموا أفراداً و وضعوهم موضع الصدارة لا لشيء إلا لأنهم نشأوا سوياً في محضن تربوي واحد أياً كان مسماه و هم يعلمون أن في الناس من هو أفضل منه .

يقول شيخ الإسلام: فَيَجِبُ عَلَى وَلِيِّ الْأَمْرِ أَنْ يُوَلِّيَ عَلَى كُلِّ عَمَلٍ مِنْ أَعْمَالِ الْمُسْلِمِينَ، أَصْلَحَ مَنْ يَجِدُهُ لِذَلِكَ الْعَمَلِ، قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «مَنْ وَلِيَ مِنْ أَمْرِ الْمُسْلِمِينَ شَيْئًا، فَوَلَّى رَجُلًا وَهُوَ يَجِدُ مَنْ هُوَ أَصْلَحُ لِلْمُسْلِمِينَ مِنْهُ فَقَدْ خَانَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ» . وَفِي رِوَايَةٍ: «من ولى رجلاً عَلَى عِصَابَةٍ، وَهُوَ يَجِدُ فِي تِلْكَ الْعِصَابَةِ من هو أرضى لله منه، فقد خان الله ورسوله وَخَانَ الْمُؤْمِنِينَ» . رَوَاهُ الْحَاكِمُ فِي صَحِيحِهِ. وَرَوَى بَعْضُهُمْ أَنَّهُ مِنْ قَوْلِ عُمَرَ: لِابْنِ عُمَرَ، رُوِيَ ذَلِكَ عَنْهُ. وَقَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رضي الله عنه: " مَنْ وَلِيَ مِنْ أَمْرِ الْمُسْلِمِينَ شَيْئًا فَوَلَّى رَجُلًا لِمَوَدَّةٍ أَوْ قَرَابَةٍ بَيْنَهُمَا، فَقَدْ خَانَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالْمُسْلِمِينَ ". وَهَذَا وَاجِبٌ عَلَيْهِ. فَيَجِبُ عَلَيْهِ الْبَحْثُ عَنْ الْمُسْتَحِقِّينَ لِلْوِلَايَاتِ مِنْ نُوَّابِهِ عَلَى الْأَمْصَارِ؛ مِنْ الْأُمَرَاءِ الذين هم نواب ذي السلطان، والقضاة، ونحوهم، ومن أمراء الأجناد ومقدمي العساكر الصغار وَالْكِبَارِ، وَوُلَاةِ الْأَمْوَالِ: مِنْ الْوُزَرَاءِ، وَالْكُتَّابِ، وَالشَّادِّينَ، وَالسُّعَاةِ عَلَى الْخَرَاجِ وَالصَّدَقَاتِ، وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنْ الْأَمْوَالِ الَّتِي لِلْمُسْلِمِينَ. وَعَلَى كُلِّ وَاحِدٍ مِنْ هَؤُلَاءِ، أَنْ يَسْتَنِيبَ وَيَسْتَعْمِلَ أَصْلَحَ مَنْ يَجِدُهُ؛ وَيَنْتَهِي ذَلِكَ إلَى أَئِمَّةِ الصَّلَاةِ وَالْمُؤَذِّنِينَ، والمقرئين، والمعلمين، وأمراء الْحَاجِّ، وَالْبُرُدِ، وَالْعُيُونِ الَّذِينَ هُمْ الْقُصَّادُ، وَخُزَّانِ الْأَمْوَالِ، وَحُرَّاسِ الْحُصُونِ، وَالْحَدَّادِينَ الَّذِينَ هُمْ الْبَوَّابُونَ عَلَى الْحُصُونِ وَالْمَدَائِنِ، وَنُقَبَاءِ الْعَسَاكِرِ الْكِبَارِ

وَالصِّغَارِ، وَعُرَفَاءِ الْقَبَائِلِ وَالْأَسْوَاقِ، وَرُؤَسَاءِ الْقُرَى الَّذِينَ هُمْ " الدهاقين[1] ".

الثمرة الثالثة : الإمامة ليست موروثة[2] .

إن الذين قالوا: ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِٱلْمُلْكِ مِنْهُ﴾ (البقرة:٢٤٧) ذكر بعض المفسرين أن فيها دلالة على بطلان قول من يقول: إن الإمامة موروثة، الإمامة ليست موروثة وإنما هي من أهل الحل والعقد بناءً على العلم والقوة.

فالمظهر و النسب ليسا دليلين على الجوهر فقد يكون الشخص نحيلاً لكنه قوي ، و قد يكون غير حسيب لكنه فقيه ولذلك قال الشاعر:

ترى الرجل النحيف فتزدريه وفي أثوابه أسد هصور
ويعجبك الطرير فتبتليه فيخلف ظنك الرجل الطرير
وقد عظم البعير بغير لب فلم يستغن ذي العظم البعير

فزيادة الجسم كانت في كثرة معاني الخير والشجاعة، وليست فقط أنه طويل وعريض ومفتول العضلات.

الابتلاء الثاني : تقديم شرع الله على شهوة النفس .

الله – سبحانه – ثبت فينا شهوات ضاغطة و أنزل إلينا تشريعات ضابطة لذلك نقول: إن للشهوة مع الشرع حالين :

الأول : أن تتوافق الشهوة مع الشرع و هذا لا بأس منه بل يؤجر الإنسان بقضاء هذه

---

١ – السياسة الشرعية في إصلاح الراعي والرعية (ص: ٧ و ٨)

٢ – هذه العبارة من كلام العلامة محمد رشيد رضا .

الشـهوة كرجل يكسـب مالاً من حلال و يأكل ما يشـتهي من الحلال فهذا قضى شـهوة نفسه بما لا يخالف الشرع .

الثاني : أن تتعارض الشهوة مع الشرع و هنا على المؤمن أن يأخذ القرار ماذا يقدم ؟ و ماذا يؤخر ؟ فإن قدم الشرع و أخر الشهوة فهو متعبد لله باسميه المقدم المؤخر و إن فعل غير ذلك فهذا طعن في التعبد . قس على ذلك كل شهوة تتعارض مع الشرع .

و الموقـف هنـا أننـا أمـام جيش طلب قيـادة ربانية و أعلـن رغبته في التعلـق بمنهاج الأنبياء و أظهر حماساً و استعداداً لقتال ملك جبار يفوقهم عدداً و عتاداً فبحساب البشر تكون الغلبة غالباً في جانب جالوت و بحسـاب الوحي ينتصر أصحاب الإيمان الصادق مهـما كان عددهـم و انتصارهـم . و مدد الله لهـم مرهون بتصفية صفهـم و تخليته ممن لا يزيـدون الجيـش إلا خبالاً فالـكاذب في ادعائـه و المتحمس بغير رصيـد و المتحرك بغير بعلـم و المجاهد بغير إيمان ضعيف في نفسـه و يصـدر ضعفه لمن حوله فلا يعجبك عدده ولا يبهـرك علـو صوتـه و قد قـال الله في حق من تخلفوا عن رسـول الله في غـزوة تبوك : ﴿ ۞ وَلَوۡ أَرَادُواْ ٱلۡخُرُوجَ لَأَعَدُّواْ لَهُۥ عُدَّةٗ وَلَٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمۡ فَثَبَّطَهُمۡ وَقِيلَ ٱقۡعُدُواْ مَعَ ٱلۡقَٰعِدِينَ ٤٦ لَوۡ خَرَجُواْ فِيكُم مَّا زَادُوكُمۡ إِلَّا خَبَالٗا وَلَأَوۡضَعُواْ خِلَٰلَكُمۡ يَبۡغُونَكُمُ ٱلۡفِتۡنَةَ وَفِيكُمۡ سَمَّٰعُونَ لَهُمۡۗ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ (التوبة: ٤٦-٤٧)[1].

---

١ - يقول الشيخ السعدي :

يقول تعالى مبينا أن المتخلفين من المنافقين قد ظهر منهم من القرائن ما يبين أنهم ما قصدوا الخروج للجهاد بالكلية، وأن أعذارهم التي اعتذروها باطلة، فإن العذر هو المانع الذي يمنع إذا بذل العبد وسعه، وسعى في أسباب الخروج، ثم منعه مانع شرعي، فهذا الذي يعذر.

﴿و﴾ أما هؤلاء المنافقون ف ﴿لَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً﴾ أي: لاستعدوا وعملوا ما يمكنهم من الأسباب، ولكن لما لم يعدوا له عدة، علم أنهم ما أرادوا الخروج.

﴿وَلَكِنْ كَرِهَ اللَّهُ انْبِعَاثَهُمْ﴾ معكم في الخروج للغزو ﴿فَثَبَّطَهُمْ﴾ قدرا وقضاء، وإن كان قد أمرهم وحثهم على الخروج، وجعلهم مقتدرين عليه، ولكن بحكمته ما أراد إعانتهم، بل خذلهم وثبطهم ﴿وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ

إذن كان على القائد المؤيد بالوحي أن يبتلي جيشه ليعلم الصادقين فقال لهم : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مُبۡتَلِيكُم بِنَهَرٖ فَمَن شَرِبَ مِنۡهُ فَلَيۡسَ مِنِّي وَمَن لَّمۡ يَطۡعَمۡهُ فَإِنَّهُۥ مِنِّيٓ إِلَّا مَنِ ٱغۡتَرَفَ غُرۡفَةَۢ بِيَدِهِۦۚ فَشَرِبُواْ مِنۡهُ إِلَّا قَلِيلٗا مِّنۡهُمۡ .....﴾ (البقرة:٢٤٩).

تتجلى لنا حكمة الله في اصطفاء هذا الرجل إنه مقدم على معركة ، ومعه جيش من أمة مغلوبة ، عرفت الهزيمة والذل في تاريخها مرة بعد مرة . وهو يواجه جيش أمة غالبة فلا بد إذن من قوة كامنة في ضمير الجيش تقف به أمام القوة الظاهرة الغالبة . هذه القوة الكامنة لا تكون إلا في قوة الإرادة . الإرادة التي تضبط الشهوات والنزوات ، وتصمد للحرمان والمشاق ، وتستعلي على الضرورات والحاجات ، وتؤثر الطاعة وتحتمل تكاليفها ، فتجتاز الابتلاء بعد الابتلاء .. فلا بد للقائد المختار إذن أن يبلو إرادة جيشه ، وصموده وصبره: صموده أولاً للرغبات والشهوات ، وصبره ثانياً على الحرمان والمتاعب .. واختار هذه التجربة وهم كما تقول الروايات عطاش ، ليعلم من يصبر معه ممن ينقلب على عقبيه ، ويؤثر العافية .. وصحت فراسته : ﴿فَشَرِبُواْ مِنۡهُ إِلَّا قَلِيلٗا مِّنۡهُمۡ﴾ ..

شربوا وارتووا. فقد كان أباح لهم أن يغترف منهم من يريد غرفة بيده ، تبل الظمأ

﴿الْقَاعِدِينَ﴾ من النساء والمعذورين.

ثم ذكر الحكمة في ذلك فقال ﴿لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلا خَبَالا﴾ أي: نقصا.

﴿وَلأوْضَعُوا خِلالَكُمْ﴾ أي: ولسعوا في الفتنة والشر بينكم، وفرقوا جماعتكم المجتمعين، ﴿يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ﴾ أي: هم حريصون على فتنتكم وإلقاء العداوة بينكم.

﴿وَفِيكُمْ﴾ أناس ضعفاء العقول ﴿سَمَّاعُونَ لَهُمْ﴾ أي: مستجيبون لدعوتهم يغترون بهم، فإذا كانوا هم حريصين على خذلانكم، وإلقاء الشر بينكم، وتثبيطكم عن أعدائكم، وفيكم من يقبل منهم ويستنصحهم. فما ظنك بالشر الحاصل من خروجهم مع المؤمنين، والنقص الكثير منهم، فلله أتم الحكمة حيث ثبطهم ومنعهم من الخروج مع عباده المؤمنين رحمة بهم، ولطفا من أن يداخلهم ما لا ينفعهم، بل يضرهم.

﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾ فيعلم عباده كيف يحذرونهم، ويبين لهم من المفاسد الناشئة من مخالطتهم. انظر تفسير السعدي (١/ ٩٣٣) .

ولكنها لا تشي بالرغبة في التخلف ! وانفصلوا عنه بمجرد استسلامهم ونكوصهم . انفصلوا عنه لأنهم لا يصلحون للمهمة الملقاة على عاتقه وعاتقهم . وكان من الحزم ومن الخير أن يتفصلوا عن الجيش الزاحف ، لأنهم بذرة ضعف وخذلان وهزيمة . والجيوش ليست بالعدد الضخم ، ولكن بالقلب الصامد ، والإرادة الجازمة ، والإيمان الثابت المستقيم على الطريق .

ودلت هذه التجربة على أن النية الكامنة وحدها لا تكفي ولا بد من التجربة العملية، ومواجهة واقع الطريق إلى المعركة قبل الدخول فيها. ودلت كذلك على صلابة عود القائد المختار الذي لم يهزه تخلف الأكثرية من جنده عن التجربة الأولى بل مضى في طريقه.

وهنا كانت التجربة قد غربلت جيش طالوت – إلى حد – ولكن التجارب لم تكن قد انتهت بعد [1].

إن ما فعله طالوت مع جنوده يدل على فقهه بتاريخ بني إسرائيل فما فعله أشبه شيء بما فعله يوشع بن نون حين خرج ببني إسرائيل لفتح الأرض المقدسة بتكليف من ربه و خرج معه الألوف منهم فلم يفرح بعددهم و إنما صفاهم بحزم الفاهم و حسم القائد و يقين المؤمن فقال – كما في رواية مسلم – : " لَا يَتْبَعْنِي رَجُلٌ قَدْ مَلَكَ بُضْعَ امْرَأَةٍ، وَهُوَ يُرِيدُ أَنْ يَبْنِيَ بِهَا، وَلَمَّا يَبْنِ، وَلَا آخَرُ قَدْ بَنَى بُنْيَانًا، وَلَمَّا يَرْفَعْ سُقُفَهَا، وَلَا آخَرُ قَدِ اشْتَرَى غَنَمًا – أَوْ خَلِفَاتٍ – وَهُوَ مُنْتَظِرٌ وِلَادَهَا[2]" ، إن النبي القائد يعلم أن نصره بمن معه من

---

١ – انظر الظلال (1/ 862)

٢ – (بضع) بضم الباء هو فرج المرأة أي ملك فرجها بالزواج . و لما يبن بها أي لم يدخل بها .
(خلفات) جمع خلفة ككلمة وكلمات وهي الحامل من الإبل
(ولادها) أي نتاجها وقال النووي وفي هذا الحديث أن الأمور المهمة ينبغي أن لا تفوض إلا إلى أولي الحزم وفراغ البال لها ولا تفوض إلى متعلق القلب بغيرها لأن ذلك يضعف عزمه ويفوت كمال بذل وسعه

المؤمنين المخلصين الذين لا تتعلق قلوبهم بالدنيا المستعدين للتضحية لا يطمعون إلا في رضا الله الدنيا تحت أقدامهم و ليست في عيونهم.

الابتلاء الثالث: ابتلاء الصبر واليقين، فبهما تكون الإمامة في الدين.

روى البخاري في صحيحه من حديث البَرَاء ﷺ، قَالَ: " كُنَّا نَتَحَدَّثُ: أَنَّ أَصْحَابَ بَدْرٍ ثَلَاثُ مائَةٍ وَبِضْعَةَ عَشَرَ، بِعِدَّةِ أَصْحَابِ طَالُوتَ، الَّذِينَ جَاوَزُوا مَعَهُ النَّهَرَ، وَمَا جَاوَزَ مَعَهُ إِلَّا مُؤْمِنٌ " . هذا الحديث نص صحيح صريح أن كل من عبر النهر مؤمن ولكن المؤمنين ليسوا سواءً في درجة الإيمان لذلك نجد أنه عند المواجهة بين جند طالوت بعددهم القليل وجيش جالوت بعددهم الكبير كان رد الفعل مختلفاً فجاء على ضربين : الطائفة الأولى قالت : " لا طاقة لنا اليوم بجالوت وجنوده " ، وللمفسرين في هذا القول كلام[1] لعل أفضله أنهم قالوا كلامهم هذا افتقاراً و دعاءً وليس نكوصاً و اعتراضاً

---

١ - ﴿فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا﴾ أي: الناكلون أو الذين عبروا: ﴿لا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ﴾ فإن كان القائلون هم الناكلين، فهذا قول يبررون به نكولهم، وإن كان القائلون هم الذين عبروا مع طالوت، فإنه حصل معهم نوع استضعاف لأنفسهم، ولكن شجعهم على الثبات والإقدام أهل الإيمان الكامل حيث قالوا: ﴿كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ بعونه وتأييده، ونصره، فثبتوا، وصبروا لقتال عدوهم جالوت وجنوده. انظر تفسير السعدي = تيسير الكريم الرحمن (ص: ٢٥٩) .

و جاء في الظلال : فأمام الهول الحي، أمام كثرة الأعداء وقوتهم، تهاوت العزائم وزلزلت القلوب: «فَلَمَّا جاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قالُوا: لا طاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجالُوتَ وَجُنُودِهِ» .. وأمام هذا التخاذل ثبتت الفئة القليلة المختارة..

اعتصمت بالله ووثقت، وقالت: «كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ» .. وهذه هي التي رجحت الكفة، وتلقت النصر، واستحقت العز والتمكين. في ظلال القرآن (١/ ٣٦٢)

و جاء في التفسير الوسيط : ﴿لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ﴾ بقتال ﴿جَالُوتَ وَجُنُودِهِ﴾ أي: لا قدرة لنا على محاربتهم، فضلًا عن غلبتهم. وهؤلاء - وإن كانوا من المؤمنين معه، المنفذين لأمره في اغتراف الغرفة - إلا أنهم قالوه إظهارًا لواقع الحال، ورجاءَ المعونة من الله، وليس نكوصًا وامتناعًا عن القتال. : التفسير الوسيط - مجمع البحوث (١/ ٤٢٤) و أنا أميل إلى هذا الرأي استناداً للحديث الذي رواه البخاري و قد ذكرته .

فكأنهم يقولون : يا ربنا لا حول لنا و لا قوة لنا إلا بك فنحن قلة ضعيفة وهم أقوياء كثيرون فلا نطيق لقاءهم إلا بمدد منك فكن لنا عوناً و ظهيراً و كن لنا مولى ونصيراً . أما الطائفة الأخرى من أصحاب اليقين فقالوا : ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ (البقرة:٢٤٩).

هذا هو البلاء الثالث وهو أقوى البلاءات فليست القضية قضية اختيار قائد على غير العادة وليست القضية مقاومة العطش والماء في يدي و لكنّ الأمر هنا دم يراق وروح تُزهق وحياة تضيع و الأمر على ظاهره موت محقق فالعدو قوي الرجال كثير العدد تام السلاح فلا يثبت في هذا الموقف إلا أصحاب اليقين و الصبر لذلك قال الله في وصفهم : " قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلاقُوا اللَّهِ " ، فهم على يقين أنهم ميتون في الوقت المقدر لهم و هم على يقين أن الدنيا لا تساوي شيء وهم على يقين أن الله لا يضيع أهله و هم على يقين أن أمرهم لا ينتهي عند حدود هذه الدنيا لذلك ثبتوا وما ضعفوا ولا قالوا كلمة تشي بضعف إن اليقين رحمة من الله يملأ القلوب طمأنينة ورضا وثقة و تسليماً .

قال الإمام القرطبي في تفسيره متأثراً بما رآه في بلاد الأندلس : قوله تعالى : ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ (البقرة:٢٤٩). الفئة : الجماعة من الناس والقطعة منهم من فأوت رأسه بالسيف وفأيته أي قطعته. وفي قولهم ﷺ : ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ﴾ الآية تحريض على القتال واستشعار للصبر واقتداء بمن صدق ربه.

قلت : هكذا يجب علينا نحن أن نفعل ؟ لكن الأعمال القبيحة والنيات الفاسدة منعت من ذلك حتى ينكسر العدد الكبير منا قدام اليسير من العدو كما شاهدناه غير مرة ، وذلك بما كسبت أيدينا وفي البخاري : قال أبو الدرداء : إنما تقاتلون بأعمالكم. وفيه مسند أن النبي ﷺ قال : "هل ترزقون وتنصرون إلا بضعفائكم". فالأعمال فاسدة

والضعفاء مهملون والصبر قليل والاعتماد ضعيف والتقوى زائلة. قال الله تعالى: ﴿اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ (آل عمران: ٢٠٠). وقال: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا﴾ (المائدة: ٢٣). وقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوا وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾ (النحل: ١٢٨). وقال: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ﴾ (الحج: ٤٠). وقال: ﴿إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ (الأنفال: ٤٥). فهذه أسباب النصر وشروطه وهي معدومة عندنا غير موجودة فينا، فإنا لله وإنا إليه راجعون على ما أصابنا وحل بنا! بل لم يبق من الإسلام إلا ذكره، ولا من الدين إلا رسمه لظهور الفساد ولكثرة الطغيان وقلة الرشاد حتى استولى العدو شرقا وغربا برا وبحرا، وعمت الفتن وعظمت المحن ولا عاصم إلا من رحم[1].

لماذا الابتلاءات؟!

إن الأمة لن تنال ما تريده إلا بالصبر على الشدائد والمحن و اليقين في الله قال ابن القيم: «سمعت شيخ الإسلام ابن تيمية يقول: بالصبر واليقين تُنال الإمامة في الدين ثم تلا قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾ (السجدة: ٢٤).

إن المحن هي المحضن الذي يتشكل فيه القادة والمجددون والمصلحون حيث لا يتحقق التمكين إلا بعد الابتلاء، وقد سئل الشافعي – رحمه الله –: أيهما أفضل للرجل أن يمكن أو يبتلى؟ قال: لا يمكن حتى يبتلى. قال ابن القيم: «سمعت شيخ الإسلام ابن تيمية يقول: بالصبر واليقين تُنال الإمامة في الدين ثم تلا قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾ (السجدة: ٢٤).

---

١ – الجامع لأحكام القرآن (٣/ ٥٥٢).

وأنت حين تتأمل التاريخ وتنظر إلى سير الدعوات، ترى أنها تقابل أول ما تقابل بالابتلاءات والصدود والتنكيل، كل ذلك من أجل أن يصلب عود الدعوة وتتخرج قيادات جادة، قادرة على تحمّل أعباء الدعوة ومشاقّها فيما بعد، قادرة على تحصيل النصر وتوظيفه.

والذين ثبتوا مع رسول الله ﷺ في مكة وأصابهم من الضر والأذى ما أصابهم هم قادة الفتوحات بعد ذلك . قال الله : ﴿مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ﴾ (آل عمران: ١٧٩).

يجب أن يُرتَفَعَ بالأمة عن حياة الترف الملهي، والسرف المطغي؛ فحياة الترف ومناهج الرخاء، والاكتفاء بمجرد الانتساب للدعوة والخير لا يكفي، ولا يراهن عليه عند اشتداد الأزمات. إن هذه المناهج الهشّة والتربية الرخوة لا يمكن أن تخرج من بين أروقتها شخصيات جادة ذات مواقف قوية. فالحياة المترفة لا تلد إلا الأجنّة الرخوة، يقول أفلاطون: (الشدائد تصلح من النفس بمقدار ما تفسده من العيش، والترف أي الترف والرفاهية يفسد من النفس بمقدار ما يصلح من العيش).

لقد امتنع بنو إسرائيل عن دخول الأرض المقدسة؛ لأن نفوسهم قد ألفت الذل والهوان، فكتب الله عليهم التيه في الصحراء وحرم دخول بيت المقدس على هذا الجيل منهم حتى تنبت نابتة جديدة، وحتى ينشأ جيل غير هذا الجيل، جيل يعتبر بالدرس، وينشأ في خشونة الصحراء وحريتها صلب العود.. جيل غير هذا الجيل الذي أفسده الذل والاستعباد والطغيان في مصر، فلم يعد يصلح لهذا الأمر الجليل![1] .

١ - انظر مجلة البيان (٣٢٢/ ٢٤) من مقال ل : إبراهيم بن صالح الدحيم بعنوان (معالم في فقه الفتن والأزمات) .

القيادة

١. القيادة والقائد.

٢. أهمية القيادة و القائد.

٣. القائد الموفق.

٤. الحاكم يأتي على شاكلة المجتمع.

القيادة والقائد .

قال الملأ لنبيهم : ﴿ٱبۡعَثۡ لَنَا مَلِكٗا﴾ .

هـذا هو المكـون الرابع والأخير من مكونـات الدولة الناجحة كما عـرض القرآن في قصة طالوت، فالقصة بدأت بالحديث عن الملأ، ثم الشعب، ثم النبي، وختمت بالقائد، وهذا إشـارة إلى أن القائد إفراز طبيعي للمجتمع الخارج منه، فكل قائد يأتي على شـاكلة مـا غلـب في مجتمعه، ولا يشـذ عن ذلك إلا الحـالات النادرة[1]، وغالبـاً لا يعيش القائد الناجح في شعب فاشل إلا قليلاً، هذا إجمال نعرض فيما يلي تفصيلاً له.

جـاء في لسـان العرب: القَـوْدُ نَقِيضُ السَّـوْق، يَقُودُ الدابَّـة مِنْ أَمامِها ويَسُـوقُها مِنْ خَلْفِهـا، فالقَوْدُ مِنْ أَمام والسَّـوْقُ مِنْ خَلْف[2]. وعليه فمـكان القائد في المقدمة كالدليل والقدوة والمرشد.

إننـا نلمـح في قصة ذي القرنـين التي قصها القرآن في سـورة الكهف جوهـر القيادة، ومعـدن القائـد، فالآيـات حـددت المشـكلة، وهـي الأذى الواقـع من هجـمات يأجوج ومأجوج، وحددت الهدف المشترك وهو بناء السد، وسياق الأحداث يوضح أن الخامات متوفـرة، والأيـدي العاملـة موجودة وقـادرة، إذن فما المانـع من إقامة السـد؟!، المانع هو غيـاب القائـد الـذي يملأ القلب بحبـه، وهيبته، ويـأسر العقل بعلمـه، وحكمته، ويقبل

١ – قد يأتي الحاكم فلتة حسنة في مجتمع قبيح، وقد يأتي الحاكم عقاباً إلهياً لمجتمعه، وقد يكون حاكماً بشعاً متبجحاً يكشف ما خفي فيخرج في عهده جيل جديد يعيد النظر فيما ورثه عن السابقين.

٢ – لسان العرب (٣/ ٠٧٣) .
الْقود، بِالسُّكُونِ: هُوَ نقيض السُّوق، وَهُوَ من أَمَام، وَذَلِكَ من خلف، وبالتحريك: الْقصاص .

الناس أن يلتفوا حوله. إن ذا القرنين أقام السد، ولم يفعل شيئاً بيده، وإنما استثمر الجهود، ووجه الطاقات، فتحقق الهدف، قال تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ ٱلسَّدَّيْنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا ﴿٩٣﴾ قَالُوا۟ يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰٓ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ﴿٩٤﴾ قَالَ مَا مَكَّنِّى فِيهِ رَبِّى خَيْرٌ فَأَعِينُونِى بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ﴿٩٥﴾ ءَاتُونِى زُبَرَ ٱلْحَدِيدِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ ٱلصَّدَفَيْنِ قَالَ ٱنفُخُوا۟ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارًا قَالَ ءَاتُونِىٓ أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا ﴿٩٦﴾ فَمَا ٱسْطَٰعُوٓا۟ أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ لَهُۥ نَقْبًا﴾ (الكهف: ٩٣ - ٩٧).

• إذن فالقيادة هي القدرة على غرس الأفكار، وضبط المعايير، وجمع الجهود، لتحقيق الهدف المشترك.

هذه القيادة - لكي تستطيع فعل ما سبق - تسير في مسارات أربعة رئيسة بطريقة متوازنة حكيمة: مسار الضبط، ومسار الوجدان، ومسار الشورى، ومسار التنمية، **فمسار الضبط** أقرب إلى العمل الإداري، يحدد المهام، ويراقب الأداء، ويقيم الإنجاز، ويحدد آلية للثواب والعقاب. **ومسار وجداني** يركز على الجانب الإنساني، فهو قريب نفسياً، واجتماعياً من متبوعيه، ومطلع على تفاصيل حياتهم يشعر بهم، ويساعدهم على تحقيق طموحاتهم. **ومسار شوري** يحترم عقول الأتباع، وخبراتهم، وآرائهم، فيستشيرهم، ويضع آراءهم موضع اعتبار. **ومسار تنموي**، هو مسار يسعى دائماً لتطوير الأتباع، باعتبارهم مورد بشري مبدع، وليس عامل نمطي مكلف.

• والقائد هو الشخص الذي يستخدم نفوذه المعنوي، وما توفر لديه من قوة مادية، ليؤثر على سلوك الأفراد، ويستثمر جهودهم لإنجاز أهداف محددة.

والمقصود بالنفوذ هنا النفوذ الوهبي[1] وهي المواهب الذاتية والسمات الشخصية

١ - النفوذ نوعان : وهبي و كسبي . الوهبي ما كان مرتكزاً على السمات الشخصية التي وهبها الله للإنسان و

التـي تجعل المحيطين بالقائد يتأثرون بآرائه ويحملونها ويتحمسـون لتنفيذها وهذا النفوذ لا يتحقق إلا بثلاثة أركان:

١. القبـول النفسي الذي يغرس فيك قبولاً تشـعر معه أن هـذا القائد منك وأنت منه فهو يشعر بك ويحترم آدميتك في نفس الوقت الذي يطالبك بإنجاز مهامك.

٢. القبول العقلي الذي يجعلك واثقاً في رأيه، وراضياً بتنفيذ أمره، وقادراً على محاورته.

٣. تمثُل القدوة فالقائد مثال عملي لما يدعو إليه، فهو يقول ويفعل.

إن القيـادات الكبـيرة تولد موهوبة بسـمات القائد، لكن مواهبهـا لا تظهر إلا في بيئة قابلة، فكم من قيادي موهوب لم يواجه تحديات تسـتفز مواهبه، ولم يتوفر له العلم الذي ينمـي قدراتـه، فعاش محـدود التأثير، ومـات مغمور الأثر، وكـما يظهر الأنبياء في أشـد فـترات التاريخ سـوءاً، يظهر القادة الكبار في أشـد فـترات التاريخ تأزماً، هـؤلاء القادة الكبـار يقفـون في مفترق التاريـخ، فيتحول عندهم المسـار، ويضيفـون للحياة إضافات محورية رغم أنف الشدائد، فيكتشفون الرجال، ويصنعون الحوادث، ويغيرون الموازين، فتتغير الحياة، مثل هؤلاء القادة قلة نادرة، لكن الله بلطفه قدر ألا يخلو منهم زمن.

إن القيادي الذي نقصده له سمات عزيزة تناسب عزة الدور الذي يقوم به، ولعل من أبرز هذه السمات ما سأذكر بعضه، وأنا هنا أمثل ولا أحصي.

فمـن سـمات القائد أنـه شـخصية مغناطيسـية جاذبة، لديـه القدرة على جمـع الناس حولـه بخلقـه، وعلمه، وذكائه، وتفاعلـه الإيجابي معهم، والتأثير الرفيق فيهم، وكسـب احترامهـم وإن خالفوه، وإذا أردت مثالاً فإليك القائد الإسـلامي الكبير، رجل الدولة،

الكسبي هو ما اكتسبه الإنسان من من ماله أو منصبه أو حسبه .....إلخ .

وصديق الأمة، إنه سيدنا أبو بكر – ﷺ –، يقول ابن إسحاق: "فلما أسلم أبو بكر وأظهر إسلامه ودعا إلى الله ورسوله، وكان أبو بكر رجلاً مآلفاً لقومه، محببا سهلا، وكان أنسب قريش لقريش، وأعلم قريش بما كان فيها من خير أو شر، وكان رجلاً تاجراً، ذا خلق ومعروف، وكان رجال قومه يأتونه ويألفونه لغير واحد من الأمر لعلمه وتجارته وحسن مجالسته، فجعل يدعو إلى الإسلام من وثق به من قومه ممن يغشاه ويجلس إليه، فأسلم على يديه فيما بلغني الزبير بن العوام، وعثمان بن عفان، وطلحة بن عبيد الله، وسعد ابن أبي وقاص، وعبد الرحمن بن عوف، ومعهم أبو بكر، فانطلقوا حتى أتوا رسول الله ﷺ، فعرض عليهم الإسلام، وقرأ عليهم القرآن، وأنبأهم بحق الإسلام، وبما وعدهم الله من كرامة فآمنوا، وأصبحوا مقرين بحق الإسلام، فكان هؤلاء النفر الثمانية الذين سبقوا إلى الإسلام فصلوا وصدقوا رسول الله ﷺ، وآمنوا بما جاء من عند الله تعالى[1].

ثم إليك هذا الموقف العجيب، إن أحد بطليه رأس في الكفر هو ابن الدغنة، وبطله الآخر رأس في الإيمان هو الصديق أبو بكر، وعلى المستوى الإنساني أنا أُعجب بالرجلين، ومنذ أن قرأت هذا الموقف قلت: "الكبير يعرف قدر الكبير، والحقير لا يعرف قدراً لأحد"، وإليك الموقف: "خَرَجَ أَبُو بَكْرٍ مُهَاجِرًا نَحْوَ أَرْضِ الْحَبَشَةِ، حَتَّى إِذَا بَلَغَ بَرْكَ الْغِمَادِ لَقِيَهُ: ابْنُ الدُّغُنَّةِ وَهُوَ سَيِّدُ الْقَارَةِ، قَالَ: أَيْنَ تُرِيدُ يَا أَبَا بَكْرٍ؟ قَالَ: أَبُو بَكْرٍ: أَخْرَجَنِي قَوْمِي، فَأُرِيدُ أَنْ أَسِيحَ فِي الْأَرْضِ وَأَعْبُدَ رَبِّي، قَالَ ابْنُ الدُّغُنَّةِ: فَإِنَّ مِثْلَكَ لَا يَخْرُجُ وَلَا يُخْرَجُ، إِنَّكَ تُكْسِبُ الْمَعْدُومَ، وَتَصِلُ الرَّحِمَ، وَتَحْمِلُ الْكَلَّ، وَتَقْرِي الضَّيْفَ، وَتُعِينُ عَلَى نَوَائِبِ الْحَقِّ، فَأَنَا لَكَ جَارٌ فَارْجِعْ، فَاعْبُدْ رَبَّكَ بِبَلَدِكَ، فَارْتَحَلَ ابْنُ الدُّغُنَّةِ مَعَ أَبِي بَكْرٍ ﷺ، وَطَافَ فِي أَشْرَافِ قُرَيْشٍ، فَقَالَ لَهُمْ: إِنَّ أَبَا بَكْرٍ لَا يَخْرُجُ مِثْلُهُ وَلَا يُخْرَجُ، أَتُخْرِجُونَ رَجُلًا يُكْسِبُ الْمَعْدُومَ، وَيَصِلُ الرَّحِمَ، وَيَحْمِلُ الْكَلَّ، وَيَقْرِي الضَّيْفَ، وَيُعِينُ عَلَى نَوَائِبِ

١ – سيرة ابن اسحاق = السير والمغازي (ص: ٠٤١).

الْحَقِّ، فَأَنْفَذَتْ قُرَيْشٌ جِوَارَ ابْنِ الدُّغُنَّةِ، وَأَمَّنُوا أَبَا بَكْرٍ .....[1]". انظر، وانبهر معي بقول ابن الدغنة: "إِلى مِثْلَكَ لَا يَخْرُجُ وَلَا يُخْرَجُ"، أي كلمة معبرة هذه، إنها سهم نافذ!!.

ومن سمات القائد القدرة على اكتشاف الرجال، وتوظيف مواهبهم، روى الحاكم في المستدرك منْ حديث عُمَرَ -رضي الله عنه- أَنَّهُ قَالَ لِأَصْحَابِهِ: «تَمَنَّوْا» ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ: أَتَمَنَّى لَوْ أَنَّ هَذِهِ الدَّارَ مَمْلُوءَةٌ ذَهَبًا أُنْفِقُهُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأَتَصَدَّقُ، وَقَالَ رَجُلٌ: أَتَمَنَّى لَوْ أَنَّهَا مَمْلُوءَةٌ زَبَرْجَدًا وَجَوْهَرًا فَأُنْفِقُهُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأَتَصَدَّقُ، ثُمَّ قَالَ عُمَرُ: «تَمَنَّوْا» فَقَالُوا: مَا نَدْرِي يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، فَقَالَ عُمَرُ: «أَتَمَنَّى لَوْ أَنَّهَا مَمْلُوءَةٌ رِجَالًا مِثْلَ أَبِي عُبَيْدَةَ بْنِ الْجَرَّاحِ، وَمُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ، وَسَالِمٍ مَوْلَى أَبِي حُذَيْفَةَ، وَحُذَيْفَةَ بْنِ الْيَمَانِ[2]»".

ومن سمات القائد القدرة على قراءة الموقف وفهمه، وإبداء الرأي المعلل فيه، وطرح الحلول القابلة للتنفيذ، وإيجاد البدائل تحقق نفس الهدف، والتعامل مع الموافق، والمخالف، والتحكم في مشاعره، يحسن الاستماع، ويقبل النصح، ولا يستنكف النقد، والقدرة على صنع القرار، وتغليب المبدأ العقدي على سلطان القلب، تفير العقل، يجمع بين الرفق والحزم، والرحمة والحسم، القدرة على تحديد الهدف، والوسائل الموصلة له.

إذن لابد للناس من أمير يجتمعون عليه، ولابد للأمير من كيانات مساعدة تعينه على هذه الإمارة، فلابد للمجتمعات البشرية من قيادة تنظم شؤونها، وتقيم العدل بينها؛ حتى لقد أمر النبي ﷺ بتعيين القائد في أقل التجمعات البشرية حين قال – صلى الله عليه و سلم – : سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: "إِذَا كُنْتُمْ ثَلَاثَةً فِي سَفَرٍ، فَلْيَؤُمَّكُمْ أَحَدُكُمْ، وَأَحَقُّكُمْ بِالْإِمَامَةِ أقرؤكم[3]".

١ – دلائل النبوة للبيهقي محققا (٢/ ١٧٤) الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت.

٢ – المستدرك على الصحيحين للحاكم (٣/ ٢٥٢) رقم (٥٠٠٥) صحيح على شرط البخاري ومسلم.

٣ – رواه ابن حبان و قال : شعيب الأرنؤوط إسناده صحيح على شرط مسلم، رجاله ثقات رجال الشيخين

يقول شيخ الإسلام : فَأَوْجَبَ -ﷺ- تَأْمِيرَ الْوَاحِدِ فِي الِاجْتِمَاعِ القليل العارض في السفر، تنبيها بذلك عَلَى سَائِرِ أَنْوَاعِ الِاجْتِمَاعِ. وَلِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَوْجَبَ الْأَمْرَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيَ عَنْ الْمُنْكَرِ، وَلَا يَتِمُّ ذَلِكَ إلَّا بِقُوَّةٍ وَإِمَارَةٍ. وَكَذَلِكَ سَائِرُ مَا أَوْجَبَهُ مِنْ الْجِهَادِ وَالْعَدْلِ وَإِقَامَةِ الْحَجِّ وَالْجُمَعِ وَالْأَعْيَادِ وَنَصْرِ الْمَظْلُومِ. وَإِقَامَةِ الْحُدُودِ لَا تَتِمُّ إلَّا بِالْقُوَّةِ وَالْإِمَارَةِ؛ وَلِهَذَا رُوِيَ: «أَنَّ السُّلْطَانَ ظِلُّ اللَّهِ فِي الْأَرْضِ» وَيُقَالُ " سِتُّونَ سَنَةً مِنْ إمَامٍ جَائِرٍ أَصْلَحُ مِنْ لَيْلَةٍ واحدة بِلَا سُلْطَانٍ ". وَالتَّجْرِبَةُ تُبَيِّنُ ذَلِكَ.

وَلِهَذَا كَانَ السَّلَفُ - كَالْفُضَيْلِ بْنِ عِيَاضٍ وَأَحْمَدَ بْنِ حَنْبَلٍ وَغَيْرِهِمَا- يَقُولُونَ: لَوْ كَانَ لَنَا دَعْوَةٌ مُجَابَةٌ لَدَعَوْنَا بِهَا لِلسُّلْطَانِ. وَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «إن الله يرضى لكم ثلاثاً: أَنْ تَعْبُدُوهُ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا، وَأَنْ تَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا، وَأَنْ تَنَاصَحُوا مَنْ وَلَّاهُ اللَّهُ أَمْرَكُمْ» . رَوَاهُ مُسْلِمٌ.

ثم قال: فَالْوَاجِبُ اتِّخَاذُ الْإِمَارَةِ دِينًا وَقُرْبَةً يُتَقَرَّبُ بِهَا إلَى اللَّهِ؛ فَإِنَّ التَّقَرُّبَ إلَيْهِ فِيهَا بِطَاعَتِهِ وَطَاعَةِ رَسُولِهِ مِنْ أَفْضَلِ الْقُرُبَاتِ[1]. وقد قيل: "جيش من الأرانب يقوده أسد، أفضل من جيش من أسود يقوده أرنب". وعليه فأهمية القيادة أنها حلقة الوصل بين العاملين القدرين على بذل الجهد والأهداف المرجوة.

غير أبي نضرة -واسمه المنذر بن مالك- فإنه من رجال مسلم.وأخرجه أحمد ٣/ ٤٢ عن يحيى بن سعيد، عن شعبة وهشام، بهذا الإسناد، وصححه ابن خزيمة "٨٠٥١". و رواه أبو داود و صححه الألباني .

١ - السياسة الشرعية في إصلاح الراعي والرعية (ص: ٩٢١) .

الحاكم يأتي على شاكلة المجتمع .

إن نظم القرآن عجيب، وربك إذا تكلم أدهش، ومن وجوه العجب، والدهشة هنا أن آخر ما ذُكر في مكونات الدولة، والعصر الجديدين الملك فقد ذكره القرآن بعد الملأ والمنهج والشعب وهذا يعني ببساطة أن القيادة إفراز طبيعي للمجتمع الذي تخرج منه قال تعالى : ﴿وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ (الأنعام: ١٢٩).

قال الإمام الرازي في تفسيره: وَكَذلِكَ نُولِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضاً لِأَنَّ الْجِنْسِيَّةَ عِلَّةُ الضَّمِّ فَالْأَرْوَاحُ الْخَبِيثَةُ تَنْضَمُّ إِلَى مَا يُشَاكِلُهَا فِي الْخُبْثِ وَكَذَا الْقَوْلُ فِي الْأَرْوَاحِ الطَّاهِرَةِ فَكُلُّ أَحَدٍ يَهْتَمُّ بِشَأْنِ مَنْ يُشَاكِلُهُ فِي النُّصْرَةِ وَالْمَعُونَةِ وَالتَّقْوِيَةِ. وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

ثم قال: الْآيَةُ تَدُلُّ عَلَى أَنَّ الرَّعِيَّةَ مَتَى كَانُوا ظَالِمِينَ فَاللَّهُ تَعَالَى يُسَلِّطُ عَلَيْهِمْ ظَالِمًا مِثْلَهُمْ فَإِنْ أَرَادُوا أَنْ يَتَخَلَّصُوا مِنْ ذَلِكَ الْأَمِيرِ الظَّالِمِ فَلْيَتْرُكُوا الظُّلْمَ وَأَيْضًا الْآيَةُ تَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ لَا بُدَّ فِي الْخَلْقِ مِنْ أَمِيرٍ وَحَاكِمٍ لِأَنَّهُ تَعَالَى إِذَا كَانَ لَا يُخَلِّي أَهْلَ الظُّلْمِ مِنْ أَمِيرٍ ظَالِمٍ فَبِأَنْ لَا يُخَلِّي أَهْلَ الصَّلَاحِ مِنْ أَمِيرٍ يَحْمِلُهُمْ عَلَى زِيَادَةِ الصَّلَاحِ كَانَ أَوْلَى. قَالَ سيدنا عَلِيٌّ -رضي الله عنه-: لَا يَصْلُحُ لِلنَّاسِ إِلَّا أَمِيرٌ عَادِلٌ أَوْ جَائِرٌ فَأَنْكَرُوا قَوْلَهُ: أَوْ جَائِرٌ فَقَالَ: نَعَمْ، يُؤَمِّنُ السَّبِيلَ، وَيُمَكِّنُ مِنْ إِقَامَةِ الصَّلَوَاتِ، وَحَجِّ الْبَيْتِ. وَرُوِيَ أَنَّ أَبَا ذَرٍّ سأل الرسول صلّى الله عليه وآله وَسَلَّمَ الْإِمَارَةَ فَقَالَ لَهُ: «إِنَّكَ ضَعِيفٌ وَإِنَّهَا أَمَانَةٌ وَهِيَ فِي الْقِيَامَةِ خِزْيٌ وَنَدَامَةٌ إِلَّا مَنْ أخذها بحقها وَأَدَّى الَّذِي عَلَيْهِ فِيهَا». وَعَنْ مَالِكِ بْنِ دِينَارٍ: جَاءَ فِي بَعْضِ كُتُبِ اللَّهِ تَعَالَى- أَنَا اللَّهُ مَالِكُ الْمُلُوكِ قُلُوبُ الْمُلُوكِ وَنَوَاصِيهَا بِيَدِي فَمَنْ أَطَاعَنِي جَعَلْتُهُمْ عَلَيْهِ

رَحْمَةً وَمَنْ عَصَانِي جَعَلْتُهُمْ عَلَيْهِ نِقْمَةً لَا تَشْغَلُوا أَنْفُسَكُمْ بِسَبِّ الْمُلُوكِ لَكِنْ تُوبُوا إِلَيَّ أُعَطِّفْهُمْ عَلَيْكُمْ-[1].

يقول أبو بكر الطرطوشي لم المالكي : أزل أسمع الناس يقولون: أعمالكم عمالكم، كما تكونوا يولى عليكم، إلى أن ظفرت بهذا المعنى في القرآن؛ قال الله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضًۢا﴾ (الأنعام: ١٢٩). وكان يقال: ما أنكرت من زمانك فإنما أفسده عليك عملك. وقال عبد الملك بن مروان: ما أنصفتمونا يا معشر الرعية، تريدون منا سيرة أبي بكر وعمر ولا تسيرون فينا ولا في أنفسكم بسيرتهما، نسأل الله أن يعين كل على كل. وقال قتادة: قالت بنو إسرائيل: إلهنا أنت في السماء ونحن في الأرض فكيف نعرف رضاك من سخطك؟ فأوحى الله تعالى إلى بعض أنبيائهم: إذا استعملت عليكم خياركم فقد رضيت عنكم، وإذا استعملت عليكم شراركم فقد سخطت عليكم. وقال عبيدة السلماني لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه: يا أمير المؤمنين ما بال أبي بكر وعمر انطاع الناس لهما، والدنيا عليهما أضيق من شبر فاتسعت عليهما ووليت أنت وعثمان الخلافة ولم ينطاعوا لكما، وقد اتسعت فصارت عليكما أضيق من شبر؟ فقال: لأن رعية أبي بكر وعمر كانوا مثلي ومثل عثمان، ورعيتي أنا اليوم مثلك وشبهك! وكتب أخ لمحمد بن يوسف يشكو إليه جور العمال، فكتب إليه محمد بن يوسف: بلغني كتابك وتذكر ما أنتم فيه، وليس ينبغي لمن يعمل المعصية أن ينكر العقوبة، ولم أر ما أنتم فيه إلا من شؤم الذنوب، والسلام؟[2]

ومن طريف ما يذكر في هذا المقام ولفت نظري جداً عبارة قالها ابن الأثير في كتابه الكامل و هو يتحدث عن ولاية الخليفة الظاهر يقول : وَلَمَّا وَلِيَ الْخِلَافَةَ، أَظْهَرَ مِنَ الْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ

١ - تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير (٣١/ ٥٠١) .

٢ - سراج الملوك (ص: ٦١١) المؤلف: أبو بكر محمد بن محمد ابن الوليد الفهري الطرطوشي المالكي (المتوفى: ٥٠٢٥) .

مَا أَعَادَ بِهِ سُنَّةَ الْعُمَرَيْنِ، فَلَوْ قِيلَ إِنَّهُ لَمْ يَلِ الْخِلَافَةَ بَعْدَ عُمَرَ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ مِثْلَهُ لَكَانَ الْقَائِلُ صَادِقًا و كان مما فعله أَنَّهُ أَعَادَ مِنَ الْأَمْوَالِ الْمَغْصُوبَةِ فِي أَيَّامِ أَبِيهِ وَقَبْلَهُ شَيْئًا كَثِيرًا، وَمِنْهَا أَنَّهُ أَخْرَجَ كُلَّ مَنْ كَانَ فِي السُّجُونِ، وَأَمَرَ بِإِعَادَةِ مَا أُخِذَ مِنْهُمْ، وَأَرْسَلَ إِلَى الْقَاضِي عَشْرَةَ آلَافِ دِينَارٍ لِيُعْطِيَهَا عَنْ كُلِّ مَنْ هُوَ مَحْبُوسٌ فِي حَبْسِ الشَّرْعِ وَلَيْسَ لَهُ مَالٌ . وَمِنْهَا أَنَّ الْعَادَةَ كَانَتْ بِبَغْدَادَ أَنَّ الْحَارِسَ بِكُلِّ دَرْبٍ يُبَكِّرُ، وَيَكْتُبُ مُطَالَعَةً إِلَى الْخَلِيفَةِ بِمَا تَجَدَّدَ فِي دَرْبِهِ مِنَ اجْتِمَاعِ بَعْضِ الْأَصْدِقَاءِ بِبَعْضٍ عَلَى نُزْهَةٍ، أَوْ سَمَاعٍ، أَوْ غَيْرِ ذَلِكَ، وَيَكْتُبُ مَا سِوَى ذَلِكَ مِنْ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ، فَكَانَ النَّاسُ مِنْ هَذَا فِي حَجْرٍ عَظِيمٍ، فَلَمَّا وَلِيَ هَذَا الْخَلِيفَةُ – جَزَاهُ اللَّهُ خَيْرًا – أَتَتْهُ الْمُطَالَعَاتُ عَلَى الْعَادَةِ، فَأَمَرَ بِقَطْعِهَا، وَقَالَ: أَيُّ غَرَضٍ لَنَا فِي مَعْرِفَةِ أَحْوَالِ النَّاسِ فِي بُيُوتِهِمْ؟ فَلَا يَكْتُبُ أَحَدٌ إِلَيْنَا إِلَّا مَا يَتَعَلَّقُ بِمَصَالِحِ دَوْلَتِنَا، فَقِيلَ لَهُ: إِنَّ الْعَامَّةَ تَفْسُدُ بِذَلِكَ، وَيَعْظُمُ شَرُّهَا، فَقَالَ: نَحْنُ نَدْعُو اللَّهَ أَنْ يُصْلِحَهُمْ. وَمِنْ حُسْنِ نِيَّتِهِ لِلنَّاسِ أَنَّ الْأَسْعَارَ فِي الْمَوْصِلِ وَدِيَارِ الْجَزِيرَةِ كَانَتْ غَالِيَةً، فَرَخُصَتِ الْأَسْعَارُ، وَأَطْلَقَ حَمْلَ الْأَطْعِمَةِ إِلَيْهَا.

ثم قال ابن الأثير: فَاللَّهُ – تَعَالَى – يُؤَيِّدُهُ وَيَنْصُرُهُ وَيُبْقِيهِ، فَإِنَّهُ غَرِيبٌ فِي هَذَا الزَّمَانِ الْفَاسِدِ . وَلَقَدْ سَمِعْتُ عَنْهُ كَلِمَةً أَعْجَبَتْنِي جِدًّا، وَهِيَ أَنَّهُ قِيلَ لَهُ فِي الَّذِي يُخْرِجُهُ وَيُطْلِقُهُ مِنَ الْأَمْوَالِ الَّتِي لَا تَسْمَحُ نَفْسٌ بِبَعْضِهَا، فَقَالَ لَهُمْ: أَنَا فَتَحْتُ الدُّكَّانَ بَعْدَ الْعَصْرِ، فَاتْرُكُونِي أَفْعَلُ الْخَيْرَ، فَكَمْ أَعِيشُ؟ وَتَصَدَّقَ لَيْلَةَ عِيدِ الْفِطْرِ مِنْ هَذِهِ السَّنَةِ، وَفَرَّقَ فِي الْعُلَمَاءِ وَأَهْلِ الدِّينِ مِائَةَ أَلْفِ دِينَارٍ[1].

والملفت للنظر قوله: فَاللَّهُ – تَعَالَى – يُؤَيِّدُهُ وَيَنْصُرُهُ وَيُبْقِيهِ، فَإِنَّهُ غَرِيبٌ فِي هَذَا الزَّمَانِ الْفَاسِدِ، إن ابن الأثير يستغرب وجود هذا الحاكم العادل في هذا الشعب الفاسد وهذه إشارة إلى أن الحاكم رزق الشعب فهو رحمة الله للناس أو سوطه عليهم .

١ – انظر الكامل في التاريخ (01/ 104 و ما بعدها بتصرف)

الفهرس

تقديم ٣

إهداء ٥

مقدمة الأستاذ الدكتور خالد فهمي ٧

مقدمة د.محمد محمود أبو دوابه ١١

مقدمة المؤلف ١٥

ذلك الكتاب ٢٣

قبل الانطلاق تمهيد، وتأسيس ٢٣

• المقدمة الأولى: لا أمة بغير نبي وكتاب. ٢٣

المقدمة الثانية القرآن منهاج، وسورة البقرة سنامه الأعلى ٢٧

• الهدف العام للسورة. ٢٩

أنماط الشخصية ٣٣

مفهومنا لكلمة الكتاب ٤٧

(١) الكتاب منهاج، وميثاق، وعهد ٤٧

مشاهد القصة ٥٢

القرآن يقص ٥٣

بين يدي القصة ٥٤

الدخول إلى فكر جديد و عصر جديد وبناء دولة قوية ٦٥
الملأ ٧٥
الملأ بين الماضي و الحاضر ٨٩
لا تقوم دولة الدين على أكتاف المغرورين أو الطامعين ٩٨
المنهج ١٠٠
هدي أوربا أم هدي محمد ﷺ ١٠١
خطة عمل ١٠٨
الشعب ١٢١
علاقة الشعب بالدولة ١٢٣
الشعب الوضيع حمل ثقيل على القائد العظيم ١٢٥
تصفية الشعب المتحمس بثلاث ابتلاءات ١٢٩
لماذا الابتلاءات؟! ١٣٩
القيادة ١٤٢
القيادة والقائد ١٤٣
الحاكم يأتي على شاكلة المجتمع ١٤٩
الفهرس ١٥٣